الحجاج بن يوسف الثقفي
بين الحزم والطغيان

الحجاج بن يوسف الثقفي
بين الحزم والطغيان

يوسف أبو الحجاج الأقصري

تقديم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وبعد

هذا مختصر عن الحجاج بن يوسف الثقفي (40 هـ - 95 هـ) ذلك القائد والوالي الأموي الذي نسجت حوله الأساطير واختلف بشأنه المؤرخين أنه أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي (661م – 714م) الذي ولد ونشأ بالطائف وانتقل للشام ليلحق بروح بن زنباع نائب عبد الملك بن مروان ليلتحق بشرطته ويظهر إخلاصه وولائه للخليفة عبد الملك بن مروان حتي قلده أمر العسكر، وعندما لاحظ فيه الجرأة والإقدام أمره عبد الملك بن مروان بقتال عبد الله بن الزبير فزحف إلي الحجاز بجيش كبير وقتل عبد الله بن الزبير وفرق جموعه، فولاه عبد الملك بن مروان ولاية مكة والمدينة والطائف مكافأة له ثم أضاف له العراق التي كانت ثائرة فقمع الثورة وثبتت له الإمارة عشرين عاماً إنها شخصيته متناقضة تماماً تفعل الشر مثلما تفعل الخير، عرف بالمبير أي المبيد وتم وصفه بالسفاح والطاغية، ومع ذلك يذكر المؤرخون عدة إصلاحات ومزايا تمت علي يد الحجاج بن يوسف الثقفي مثل عنايته بالقرآن، وإنه هو الذي

جمع القرآن وربعه وشبعه، وقام بهذا العمل في أربعة شهور، أما الأعشار فيروي أنها من عمله، وقيل إنها من عمل المأمون، كما أنه قام بضرب العملة العربية وتحويل الديوان من الفارسية إلي العربية إلى جانب إصلاحاته الزراعية وبناؤه للمدن، وعنايته بالأسطول.. ومع ذلك كانت مهاجمة الحجاج بن يوسف الثقفي للحرم وضرب الكعبة بالمنجنيق مثاراً لكثير من النقد حتي وقتنا هذا.

ويقال إن الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز قال عن الحجاج بن يوسف الثقفي بعد وفاته.. (ما حسدت عدو الله علي شيء حسدي إياه علي حبه القرآن وإعطائه أهله عليه، وقوله حين حضرته الوفاة، اللهم اغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل) حقاً كانت شخصيته تستحق الدراسة؛ لأنها لم تكن شخصية عادية علي الإطلاق ومع جوانب من شخصية الحجاج بن يوسف الثقفي تدور سطور هذا الإصدار متمنياً أن يكون متوازناً لا مع.. ولا ضد.. مجرد إضاءات علي مواقف وأفعال وسلوكيات والي بني أمية الشهير الحجاج بن يوسف الثقفي.

والله الموفق والمستعان

المؤلف

يوسف أبو الحجاج الأقصري

الحجاج بن يوسف الثقفي

(١)

التعريف بالشخصية

بطاقة تعارف

الاسم عند الولادة: كليب بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي

الاسم المعروف به: أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي

اسم الشهرة: الحجاج بن يوسف الثقفي

الميلاد: 661م الموافق 40 هـ

مكان الميلاد: الطائف

الوفاة: 714م الموافق 95 هـ

الكنية: الحجاج – المبير – المبيد

الولاء: الدولة الأموية

المناصب: قائد عسكري

والي علي العراق

أشهر أعماله: حرب الخوارج

تنقيط المصحف

موجز سيرته

الحجاج بن يوسف الثقفي
موجز سيرته

نسبه:

هو أبو محمد الحجاج كليب بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف، الثقفي.

نشأته:

ولد في منازل ثقيف بمدينة الطائف في عام الجماعة 40هـ وكان اسمه كليب ثم أبدله الحجاج، وأمه الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي الصحابي الشهير. نشأ في الطائف وتعلم القرآن والحديث والفصاحة ثم عمل في مطلع شبابه معلم صبيان مع أبيه، يعلم الفتية القرآن والحديث ويفقهم في الدين، لكنه لم يكن راضياً بعمله هذا، علي الرغم من تأثيره الكبير عليه، فقد اشتهر بتعظيمه للقرآن.

كانت الطائف تلك الأيام بين ولاية عبد الله بن الزبير وبين ولاية الأمويين، لكن أصحاب عبد الله بن الزبير تجبروا علي أهل الطائف، فقرر الحجاج الانطلاق إلي الشام، لجمع الخلافة الأموية المتعثرة التي تركها مروان بن الحكم نهباً بين المتحاربين.

قد تختلف الأسباب التي دفعت الحجاج إلي اختيار الشام مكاناً ليبدأ طموحه السياسي منه رغم بعد المسافة بينها وبين الطائف وقرب مكة إليه، لكن يعتقد أن السبب الأكبر كراهيته لولاية عبد الله بن الزبير، وفي الشام التحق بشرطة الإمارة التي كانت تعاني من مشاكل جمة منها سوء التنظيم واستخفاف أفراد الشرطة بالنظام وقلة المجندين، فأبدي حماسة وانضباطاً وسارع إلي تنبيه أولياء الأمر لكل خطأ أو خلل وأخذ نفسه بالشدة فقربه روح بن زنباع قائد الشرطة إليه ورفع مكانته ورقاه فوق أصحابه فأخذهم بالشدة وعاقبهم لأدني خلل فضبطهم وسير أمورهم بالطاعة المطلقة لأولياء الأمور.

رأي فيه روح بن زنباع العزيمة والقوة الماضية فقدمه إلي الخليفة عبد الملك بن مروان وكان داهية مقداماً جمع الدولة الأموية وحماها من السقوط فأسسها من جديد، إذ أن الشرطة كانت في حالة سيئة وقد استهون جند الإمارة عملهم فتهاونوا فأهم أمرهم عبد الملك

ابن مروان وعندها أشار عليه روح بن زنباع بتعيين الحجاج عليهم فلما عينه أسرف في عقوبة المخالفين وضبط أمور الشرطة فما عاد منهم تراخ ولا لهو إلا جماعة روح بن زنباع فجاء الحجاج يوماً علي رؤوسهم وهم يأكلون فنهاهم عن ذلك في عملهم لكنهم لم ينتهوا ودعوه معهم إلي طعامهم، فأمر بهم فحبسوا وأحرقت سرادقهم فشكاه روح بن زنباع إلي الخليفة فدعا الحجاج وسأله عما حمله علي فعله هذا فقال إنما أنت مَنْ فعل يا أمير المؤمنين فأنا يدك وسوطك وأشار عليه بتعويض روح بن زنباع دون كسر أمره.

وكان عبد الملك بن مروان قد قرر تسيير الجيوش لمحاربة الخارجين علي الدولة فضم الحجاج إلي الجيش الذي قاده بنفسه لحرب مصعب بن الزبير.

ولم يكن أهل الشام يخرجون في الجيوش فطلب الحجاج من الخليفة أن يسلطه عليهم ففعل فأعلن الحجاج أن أيما رجل قدر علي حمل السلاح ولم يخرج معه أمهله ثلاثاً ثم قتله وأحرق داره وانتهب ماله ثم طاف بالبيوت باحثاً عن المتخلفين وبدأ الحجاج بقتل أحد المعترضين عليه فأطاعه الجميع وخرجوا معه بالجبر لا الاختيار.

شخصيته:

كان معروفاً بحسن البادة وكان غيوراً علي القرآن مُعظِّم له وكان هو وأبوه يعلمان القرآن للصبيان في الطائف بلا مقابل ويجزل العطاء لأهله، وكان الحجاج بعيداً كل البعد عن الملذات زاهداً في المال وكان صاحب مواعظ بليغة ومعروف ببعده عن صفات النفاق وكل هذه الصفات لا تنفي مغالاته في التكفير إلي أنه يفعل ما يفعله تديناً وتقرباً لله حتي أنه لقب نفسه بمبيد المنافقين.

حرب مكة:

في 73هـ قرر عبد الملك بن مروان التخلص من عبد الله بن الزبير فجهز جيشاً ضخماً لمنازلة ابن الزبير في مكة وأمر عليه الحجاج بن يوسف فخرج بجيشه إلي الطائف وانتظر الخليفة ليزوده بمزيد من الجيوش فتوالت الجيوش إليه حتي تقوي تماماً فسار إلي مكة وحاصر ابن الزبير فيها وهنا يزعم البعض بأن الحجاج قد ضرب الكعبة بالمنجنيق حتي هدمها وقد رد ابن تيمية علي ذلك فقال في الجواب الصحيح: (والحجاج بن يوسف كان معظماً للكعبة لم يرمها بمنجنيق)، ويقول في الرد علي المنطقين: (والحجاج ابن يوسف لم يكن عدواً لها ولا أراد هدمها ولا أذاها بوجه من

الوجوه ولا رماها بمنجنيق أصلاً). أما حكاية المنجنيق فيها شك من أصلها. فالحجاج قد تقدم جيشه واحتل الأخشبين (جبل أبي قبيس الذي عليه القصر الملكية اليوم وجبل قيقعان) وهما مطلان علي المسجد الحرام من المشرق والمغرب وقريبين إليه جداً فما الحاجة للمنجنيق؟ والمسجد الحرام من دور واحد غير مرتفع ومن السهل بمكان علي جيش من آلاف أن يعلوه ويدخله وهو ليس مبني أصلاً ليكون حصناً وهدمه لا يحتاج أكثر من بضعة أيام فلماذا طال الحصار إلي عدة شهور؟ وإن دل هذا علي شيء فيدل علي حرص الحجاج علي الكعبة المشرفة.

أعلن الحجاج الأمان لمن سلم من أصحاب ابن الزبير وأمنه هو نفسه غير أن عبدالله بن الزبير لم يقبل أمان الحجاج وقاتل رغم تفرق أصحابه عليه الذين طمعوا في أمان الحجاج فقتل وكان لابن الزبير اثنتان وسبعون سنة للحجاج اثنتان وثلاثون سنة.

ولاية الحجاج علي الحجاز:

قتل الحجاج ابن الزبير وصلبه وأرسل إلي أمه (أسماء بنت أبي بكر) أن تأتيه فأبت فأرسل إليها لإن تأتيني أو لأبعثن من يسحبك بقرونك فأرسلت إليه: والله لا أتيك حتي تبعث إليَّ من يسحبني

بقروني فلما رأي ذلك أتي إليها فقال: كيف رأيتني صنعت بعبد الله؟ قالت: رأيتك أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك أخرتك، وقد بلغني أنك كنت تعيره بابن ذات النطاقين، فقد كان لي نطاق أغطي به طعام رسول الله صلي الله عليه وسلم من النمل ونطاق لابد للنساء منه فانصرف ولم يراجعها وقيل دخل الحجاج عليها فقال: إن ابنك ألحد في هذا البيت وإن الله أذاقه من عذاب أليم قالت: كذبت كان براً بوالديه صواماً قواماً ولكن قد أخبرنا رسول الله صلي الله عليه وسلم أنه سيخرج من ثقيف كذابان الآخر منهما شرمن الأول، وهذا درس في الصدع بقول الحق أمام الجبابرة لا يقدر عليه إلا من أوتي قوة وشجاعة دين وتوكل.

وانتصر الحجاج في حربه، وأقره عبد الملك بن مروان علي ولاية مكة وأهل مكة وكان وإياهم وأهل المدينة علي خلاف كبير وفي 75 هـ قدم عبد الملك بن مروان المدينة وخطب علي قبر النبي صلي الله عليه وسلم فنزل الحجاج عن الحجاز؛ لكثرة الشكايات فيه وأقره علي العراق.

ولاية الحجاج علي العراق

دامت ولاية الحجاج علي العراق عشرين عاماً وفيها مات وكانت

العراق عراقين، عراق العرب وعراق العجم فنزل الحجاج بالكوفة وكان قد أرسل من أمر الناس بالاجتماع في المسجد، ثم دخل المسجد ملثماً بعمامة حمراء واعتلي المنبر فجلس وأصبعه علي فمه ناظراً إلي المجتمعين في المسجد فلما ضجوا من سكوته خلع عمامته فجأة وقال خطبته المشهورة التي بدأها بقول:

أنا ابن جلاد طلاع الثنايا

متي أضع العمامة تعرفوني

ومنها:

أما و الله فإني لأحمل الشر بثقله و أحذوه بنعله و أجزيه بمثله، والله يا أهل العراق إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها، والله لكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى. ثم قال: والله يا أهل العراق، يا أهل العراق، يا أهل النفاق والشقاق ومساوئ الأخلاق، إنكم طالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مناخ الضلال، وسننتم سنن الغي، وأيم الله لألحونكم لحو العود، ولأقرعنكم قرع المروة، ولأعصبنكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، إني والله لا أحلق إلا فريت، ولا أعد إلا وفيت، إياي

وهذه الزرافات، وقال وما يقول، وكان وما يكون، وما أنتم وذاك؟.

يا أهل العراق! إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرتم بأنعم الله، فأتاها وعيد القرى من ربها، فاستوسقوا واعتدلوا، ولا تميلوا، واسمعوا وأطيعوا، وشايعوا وبايعوا، واعلموا أنه ليس مني الإكثار والإبذار والأهذار، ولا مع ذلك النفار والفرار، إنما هو انتضاء هذا السيف، ثم لا يغمد في الشتاء والصيف، حتى يذل الله لأمير المؤمنين صعبكم، ويقيم له أودكم، وصغركم، ثم إني وجدت الصدق من البر، ووجدت البر في الجنة، ووجدت الكذب من الفجور، ووجدت الفجور في النار، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وإشخاصكم لمجاهدة عدوكم وعدو أمير المؤمنين، وقد أمرت لكم بذلك، وأجلتكم ثلاثة أيام، وأعطيت الله عهداً يؤاخذني به، ويستوفيه مني، لئن تخلف منكم بعد قبض عطائه أحد لأضربن عنقه. ولينهبن ماله.

ثم التفت إلى أهل الشام فقال:

يا أهل الشام! أنتم البطانة والعشيرة، والله لريحكم أطيب من ريح المسك، وإنما أنتم كما قال الله تعالى: (ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء) والتفت إلى أهل

العراق فقال:

لريحكم أنتن من ريح الأبخر، وإنما أنتم كما قال الله تعالى: (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار).

ثم أتى بكتاب ألقاه لغلامه وقال:

اقرأ كتاب أمير المؤمنين يا غلام: فقال القارئ: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى مَنْ بالعراق من المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله، فسكتوا فقال الحجاج من فوق المنبر: (أسكت يا غلام)، فسكت، فقال: (يا أهل الشقاق، ويا أهل النفاق ومساوئ الأخلاق. يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون السلام؟ أهذا أدب؟ والله لئن بقيت لكم لأؤدبنكم أدباً أدب ابن أبيه، ولتستقيمن لي أو لأجعلن لكل امرئ منكم في جسده وفي نفسه شغلاً، اقرأ كتاب أمير المؤمنين يا غلام)، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم فلما بلغ إلى موضع السلام صاحوا وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته، فأنهاه ودخل قصر الإمارة.

وقد بين في خطبته سياسته الشديدة، وبين فيها شخصيته، كما ألقى بها الرعب في قلوب أهل العراق. ومن العراق حكم الحجاج

الجزيرة العربية، فكانت اليمن والبحرين والحجاز، وكذلك خراسان من المشرق تتبعه، فقاتل الخوارج، والثائرين على الدولة الأموية في معارك كثيرة، فكانت له الغلبة عليهم في كل الحروب، وبنى واسط، فجعلها عاصمته.

حروب الخوارج

في عام 76 هـ وجه الحجاج زائدة بن قدامة الثقفي لقتال شبيب الشيباني البكري الوائلي، فكانت الغلبة لشبيب. وفي السنة التي تلتها بعث الحجاج لحرب شبيب: عتاب بن ورقاء الرباحي، الحارث ابن معاوية الثقفي، وأبو الورد البصري، وطهمان مولى عثمان. فاقتتلوا مع شبيب في سواد الكوفة، فقتلوا جميعاً، وعندها قرر الحجاج الخروج بنفسه، فاقتتل مع شبيب أشد القتال، وتكاثروا على شبيب فانهزم وقتلت زوجته غزالة الحرورية وكانت تقود النساء الخارجيات. ويروى أنها نذرت أن تصلي ركعتين في مسجد الكوفة والحجاج بها تقرأ فيهما سورتي البقرة وآل عمران ووفت بنذرها في حماية 70 من جند الخوارج ولم يستطع الحجاج منعها، وقيل في ذلك الكثير من أبيات الشعر ومن أشهرها: وفت غزالة نذرها رب لا تغفر لها، فهرب شبيب إلى الأهواز، وتقوى فيها، غير أن فرسه تعثر به في

الماء وعليه الدروع الثقيلة فغرق. وقضى الحجاج على من بقي من أصحابه.

وفي عام 79 هـ أو 80 هـ قتل قطري بن الفجاءة رأس الخوارج، وأتي الحجاج برأسه، بعد حرب طويلة.

ثورة ابن الأشعث:

في عام 80 هـ ولى الحجاج عبد الرحمن بن الأشعث على سجستان، وجهز له جيشاً عظيماً للجهاد. فلما استقر ابن الأشعث بها خلع الحجاج، وخرج عليه، وكان ذلك ابتداء حرب طويلة بينهما. وفي عام 81 هـ قام مع الأشعث أهل البصرة، وقاتلوا الحجاج يوم عيد الأضحى، وانهزم الحجاج، فقيل كانت أربع وثمانون وقعة في مائة يوم، ثلاث وثمانون على الحجاج والباقية له. وفي عام 82 هـ استعرت الحرب بين الحجاج وابن الأشعث، وبلغ جيش ابن الأشعث مبلغاً كبيراً من القوة والكثرة، ثم جاءت سنة 83 هـ، وفيها وقعة دير الجماجم بين الحجاج وابن الأشعث، وكانت من أكثر الوقائع هولاً في تاريخ بني أمية، وكان له فيها النصر على الثوار من أصحاب ابن الأشعث، وقتل فيها خلق كثير، وغنم الحجاج شيئاً كثيراً.

وكانت تلك معركة الفصل بين الثقفي والكندي. فيها ظفر الحجاج بكل أصحاب ابن الأشعث، بين قتيل وأسير، إلا ابن الأشعث، فقد قرر الالتجاء إلى رتبيل. إلا أن الحجاج هدد رتبيل بغزو بلاده إن لم يسلمه ابن الأشعث، ووافق رتبيل شريطة ألا تغزى بلاده عشر سنين، وأن يؤدي بعد هذه السنين العشر مئة ألف درهم في كل سنة. أدرك ابن الأشعث أنه سيُسلم إلى عمارة بن تميم اللخمي قائد جيش الحجاج، فتحين غفلة من الحرس وألقى بنفسه من فوق القصر فمات واحتز جند رتبيل رأسه وأرسلوه إلى الحجاج سنة 85 هـ، وانتهت بموته ثورة كانت من أقسى الأزمات التي واجهتها الدولة الأموية.

ولاية الوليد:

ثم مات عبد الملك بن مروان في عام 86 هـ، وتولى ابنه الوليد بعده، فأقر الحجاج على كل ما أقره عليه أبوه، وقربه منه أكثر، فاعتمد عليه. كان ذلك على كره من أخيه وولي عهده سليمان بن عبد الملك، وابن عمه عمر بن عبد العزيز. وفي ولاية الوليد هدد سليمان بن عبد الملك الحجاج إذا ما تولى الحكم بعد أخيه، فرد عليه الحجاج مستخفاً مما زاد في كره سليمان له ولمظالمه، وإذ ذاك كان قتيبة ابن مسلم يواصل فتوحه في المشرق، ففتح بلاداً كثيرة

في تركستان الشرقية وتركستان الغربية واشتبكت جيوشه مع جيوش الصين وكان الحجاج في سيره إلى تلك البلاد. وفي نفس الوقت قام ابن أخ الحجاج بفتح بلاد السند (باكستان اليوم).

وفاة الحجاج:

أصيب الحجاج في آخر عمره بما يظهر أنه سرطان المعدة. وتوفي بمدينة واسط في العشر الأخير من رمضان عام 95 هـ (714م)، قال محمد بن المنكدر: كان عمر بن عبد العزيز يبغض الحجاج فنفس عليه بكلمة قالها عند الموت: «اللهم اغفر لي فإنهم زعموا أنك لا تفعل»، وروى الغساني عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: «ما حسدت الحجاج عدو الله على شيء حسدي إياه على» حبه القرآن وإعطائه أهله عليه، وقوله حين حضرته الوفاة: اللهم اغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل»، وقال الأصمعي: لما حضرت الحجاج الوفاة أنشأ يقول:

يا رب قد حلف الأعداء واجتهدوا

بأنني رجل من ساكني النار

أيحلفون علي عمياء؟ ويحهم

ما علمهم بكريم العفو غفار؟

ترك الحجاج وصيته، وفيها قال: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به الحجاج بن يوسف: أوصى بأنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأنه لا يعرف إلا طاعة الوليد بن عبد الملك، عليها يحيا وعليها يموت وعليها يبعث.. الخ.

ويروى أنه قيل له قبل وفاته: ألا تتوب؟ فقال: إن كنت مسيئاً فليست هذه ساعة التوبة، وإن كنت محسناً فليست ساعة الفزع. وقد ورد أيضاً أنه دعا فقال: اللهم اغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل.

دفن في قبر غير معروف المحلة في واسط، فتفجع عليه الوليد، وجاء إليه الناس من كل الأمصار يعزونه في موته، وكان يقول: كان أبي يقول أن الحجاج جلدة ما بين عينيه، أما أنا فأقول أنه جلدة وجهي كله.

قال الذهبي فيه:

كان ظلوماً، جباراً خبيثاً سفاكاً للدماء وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء، وفصاحة وبلاغة، وتعظيم للقرآن... إلى أن قال: فلا

نسبهُ ولا نحبه، بل نبغضه في الله، فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان، وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه، وأمره إلى الله وله توحيد في الجُملة، ونظراء من ظلمة الجبابرة الأمراء.

قال ابن كثير فيه:

كان فيه شهامة عظيمة وفي سيفه رهق (الهلاك والظلم)، وكان يغضب غضب الملوك.. وقال أيضاً: وكان جباراً عنيداً مقداماً على سفك الدماء بأدنى شبهة، وقد روي عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر، فإن كان قد تاب منها وأقلع عنها، وإلا فهو باق في عهدتها ولكن يخشى أنها رويت عنه بنوع من زيادة عليه، وكان يكثر تلاوة القرآن ويتجنب المحارم، ولم يُشتهر عنه شيء من التلطخ بالفروج، وإن كان متسرعاً في سفك الدماء. فلا نكفر الحجاج، ولا نمدحه، ولا نسبه ونبغضه في الله بسبب تعديه على بعض حدود الله وأحكامه، وأمره إلى الله.

كما أن ابن كثير تحدث عن بعض من عينهم الحجاج وكانوا ذوي سمعة طيبة مثل عروة بن المغيرة بن شعبة حيث ولي إمرة الكوفة.

الحجاج وسعيد بن المسيب

عن أبي بكر بن أبي خيثمة عن بحر بن أيوب عن عبد الله بن كثير قال : صلى الحجاج مرة بجانب سعيد بن المسيب قبل أن يكون الحجاج ذا منصب و سلطة فجعل يرفع قبل الإمام ويقع قبله في السجود. فلما سلم أخذ سعيد بطرف ردائه –وكان له ذكر بعد الصلاة– فما زال الحجاج ينازعه بردائه، حتى قضى سعيد ذكره. ثم أقبل عليه سعيد فقال له: يا سارق، يا خائن. تصلي هذه الصلاة؟ فوالله لقد هممت أن أضرب بهذا النعل وجهك. فلم يرد عليه. ثم مضى الحجاج إلى الحج، فعاد إلى الشام. ثم جاء نائباً على الحجاز. فلما قتل ابن الزبير، كر راجعاً إلى المدينة نائباً عليها. فلما دخل المسجد، إذا مجلس سعيد بن المسيب. فقصده الحجاج، فخشي الناس على سعيد منه. فجاء حتى جلس بين يديه، فقال له: أنت صاحب الكلمات؟. فضرب سعيد صدره بيده وقال: نعم. قال: فجزاك الله من معلم ومؤدب خيراً. وما صليت بعدك صلاة إلا وأنا أذكر قولك. ثم قام ومضى.

ميراث الحجاج:

بنى الحجاج واسط، وسير الفتوح لفتح المشرق، خطط الدولة وحفظ أركانها قامعاً كل الفتن. غير أن الحجاج خلف أيضاً ميراثاً من الظلم وسفك الدماء لم يسبق له مثيل.

كما خلف في قلوب الناس، حتى الأمويين، كرهاً له وحقداً عليه لأفعاله، ومنها حرب ابن الزبير وقتله إياه في مكة، وما فعله في وقعة دير الجماجم.

وحقد عليه الخوارج لعظيم فعله بهم، والشيعة لعدم احترامه آل البيت، وقالوا فيه الكثير حتى لبسوا سيرته بالخوارق والأمور المغلوطة، وأمعنوا في تقبيحه والنيل منه حتى صوروه شيطاناً.

بقي ميراث الحجاج حياً إلى الآن، فلا يزال موضع حرب وتطاحن بين المختلفين، ولا تزال الأخبار المختلقة تخالط سيرته، ولا زال يُلعن ويُسب. ويراه الباحثون في التاريخ السياسي نموذجاً للطاغية الظالم سفاك الدماء.

مذهبه في الحكم:

كان الحجاج يرى بتكفير الخارج على السلطان وطرده من الملة، لذلك كان يرى ما يفعله تقرباً لله يرجو به الأجر. وهذا تناقض في

فعل الحجاج بين قتله المتقين من الناس من أمثال سعيد بن جبير وبين أعمال الخير التي قام بها كالفتوحات وتعظيم القرآن وتنظيم أمور المسلمين.

قيل بعد موته أن رجلاً رفض الصلاة خلف إمام من الخوارج، فقال له أحد أئمة البصرة: إنما تصلي لله ليس له، وإنما كنا نصلي خلف الحروري الأزرقي. قال: ومن ذاك؟ قال: الحجاج بن يوسف، فإنك إن خالفته سماك كافراً وأخرجك من الملة، فذاك مذهب الحرورية الأزارقة.

الحجاج وأهل العراق والشام

العلاقة بين الحجاج وأهل العراق هي من أكثر العلاقات تعقيداً وطرافة، ومن أكثرها ترويعاً في التاريخ الإسلامي، فالحجاج ولي على العراق كارهاً لأهلها، وهُم له كارهون، واستمرت العلاقة بينهما بالإجبار.

كان الحجاج دائم السب لأهل العراق في خطبه، فكثيرة خطبه التي يذكر فيها أهل العراق بشكل سيئ، والتي يرى فيها العراقيون إساءة إلى اليوم. فدائماً كان يذكرهم:

(يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق) إلى آخر خطبه، والتي يمعن فيها في ذكر صفاتهم:

(فإنكم قد اضجعتم في مراقد الضلالة)، وغير ذلك من الخطب الكثيرة فيهم، كراهة منه لهم.

ومن ذلك أنه لما أراد الحج استخلف ابنه محمد عليهم، وخطب فيهم أنه أوصى ولده بهم بغير وصية الرسول في الأنصار، أن يقبل

من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، فقد أوصاه ألا يقبل من محسنهم، ولا يتجاوز عن مسيئهم، وقال لهم: أعلم أنكم تقولون مقالة لا يمنعكم من إظهارها إلا خوفكم لي، لا أحسن الله لك الصحابة، وأرد عليكم: لا أحسن الله عليكم الخلافة.

وأنهم شمتوا به يوم فُجع بولده محمد، وأخيه محمد في نفس اليوم، فخطب فيهم متوعداً إياهم. ومن ذلك أنه مرض فشاع بين الناس موته، فخرج أهل العراق محتفلين بموته، غير أنه قام من مرضه ليخطب فيهم خطبة قال فيها: وهل أرجو الخير كله إلا بعد الموت.

أما أهل الشام فكانوا أكثر الناس محبة للحجاج، وأكثرهم نصرة له، وبكاء عليه بعد مماته، وقيل أنهم كانوا يقفون على قبره فيقولون رحم الله أبا محمد. وكان الحجاج محباً لهم، دائم الإشادة بخصالهم، والرفع من مكانتهم، وكان كثير الاستنصار بهم، ومعظم جيشه كان منهم، وكان رفيقاً بهم.

طاغية بني أمية

قال الحسن البصري:[1]

إن الحجاج عذاب الله، فلا تدفعوا عذاب الله بأيديكم، ولكن عليكم بالاستكانة والتضرع فإنه تعالي يقول: (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون)

(سورة المؤمنون الآية 76)

فهل كان الحجاج بن يوسف الثقفي حقا... طاغية بني أمية؟

نعرض في هذا الجزء بعض من مواقف الحجاج بن يوسف الثقفي والتي قيل بسببها أنه طاغية بني أمُية..

(١) المصدر: الطبقات لابن سعد (١٦٤ /٧) باسناد صحيح

الحجاج يحارب عبد الله بن الزبير ويرمي الكعبة بالمجانيق

بعد مقتل مصعب آلت الأمور في العراق إلي عبد الملك بن مروان فصفا له الجو وخفقت أعلامه علي بغداد، أما الحجاز فإنه كان لا يزال تحت إمرة عبد الله بن الزبير الذي اعتصم بالحجاز وسمي لذلك (العائذ بالبيت) والتمس في أرض الحرمين معقلاً له لذا فكر عبد الملك بن مروان في أمر هذا الخارج عليه (المعتصم ببيت الله الحرام) فرأي أنه لابد له إذا أراد أن يثبت عرشه أن يحارب هذا الخارج عليه ويقضي عليه تماماً.

وبالفعل أرسل عبد الملك بن مروان حملة من العراق بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي والذي رشح نفسه لهذا الأمر فصادف هذا الترشيح هوي في نفس الخليفة عبد الملك بن مروان لما رآه في الحجاج من شجاعة خلال حملة العراق ولما ألتمسه فيه من حزم وقوة شكيمة وما أبداه من مهارة وإخلاص وما دفع الحجاج لترشيح نفسه لتلك الحملة هو طموحه في أن يصل إلي قمة المجد

فضلاً عن أنه كان يخلص للأمويين إخلاصاً صار مضرب الأمثال فكان يعتقد إنه يخدم الأغراض الأموية ويثبت العرش الأموي بترشيح نفسه لمحاربة الخارجين علي هذا العرش.

وخرج الحجاج بن يوسف الثقفي من العراق علي رأس جيش لا يزيد علي ثلاثة آلاف من المقاتلين فاخترق الصحراء غرباً ولكنه لم يقدم علي المدينة بل عرج إلي الطائف فوصل إليها ونزلها دون مقاومة، ولعله اختار النزول بالطائف لأسباب جمة أهمها أن الطائف كانت ذات تربة خصبة تكثر فيها الحدائق ويطيب فيها النسيم، فرأي الحجاج أن يجعل خاتمة مطاف جيشه في الصحراء، وأن ينزل بالجند بأرض تطيب لهم الإقامة فيها ريثما يتم استعداده لمكة ويقضي بأمره فيها .. وأهم تلك الأسباب هي أن الحجاج حين نزل الطائف فإنه نزل بأرض قومه وكان يعلم أن أثرياء مكة تربطهم بالطائف روابط تجارية ومصالح عظيمة ذلك أن كانت لهم بها الحدائق الغناء التي يعتمدون علي فاكهتها والمزارع النضرة التي تغذيهم بغلاتها والقصور الصيفية التي يهرعون إليها هرباً من قيظ مكة اللافح، وإذا ما علم قومه بأمره فإنهم سيناصرونه حتماً علي ذلك الخارج المعتصم هناك (ابن الزبير) وإذا ما انقطعت الطائف عن أثرياء مكة نقموا علي ابن الزبير

إن كان موقفه من عبد الملك بن مروان الخليفة سبباً في حرمان أثرياء مكة من نعائم وخيرات الطائف وبالفعل حققت الأيام بعد نظر الحجاج في ذلك، أليس كذلك؟!

وبالفعل وجد الحجاج في الطائف أنصاراً كثر بالإضافة إلي قومه مثل محمد بن الحنفية وغيره من كبار الصحابة وأبناء عمومة الرسول صلي الله عليه وسلم وأبناء العباس، فقد أخرج هؤلاء من مكة علي يد عبد الله بن الزبير فلجأوا إلي الطائف خوفاً علي أنفسهم بعد أن حاول ابن الزبير إحراقهم لامتناعهم عن البيعة له.. وكان ذلك سبباً في رفع روح جنود الحجاج المعنوية.

ومن أسباب اختيار الحجاج بن يوسف لمدينة الطائف للوقوف بها استعداداً للهجوم علي مكة هو أنه أراد أن يقف بجيشه علي مقربة من مكة بدلاً من أن يهاجمها أو يحاصرها بجيش أضناه السفر عبر صحراء وعرة، كما أن الحجاج منذ البداية كان يعلم أنه لا يستطيع أن يكلف جيشه بأن يهاجموا مكة وفيها البيت الحرام دون أن يكون لذلك مبرر من ناحية ابن الزبير يدفع هؤلاء الجنود إلي أن يفعلوا ذلك.

ربض الحجاج وجيشه بالطائف انتظاراً لتطور الحوادث؛ لأنه يعلم أن هجوم جيش إسلامي علي مكة المكرمة وتهديد بيت الله الحرام لم

يكن من الأمور الهينة وواجب علي كل من يفكر في مثل هذا الأمر أن يعد له عدته وأن يهيئ النفوس لقبول ما هي مقدمة عليه والدليل علي ذلك أن الهيثم بن الأسود النخص لما علم بأمر تلك الحملة علي مكة قال لعبد الملك بن مروان في مستهل الحملة: أأمر هذا الغلام الثقفي أن لا يهتك أستار الكعبة ولا ينفر أطيارها ولكن يأخذ علي ابن الزبير بشعاب مكة وفجاجها حتي يهلك فيها جوي أوي خرج منها مخلوعاً.

وعسكر الحجاج وجنوده بالطائف وجعل منها مركزاً لقيادته ثم سير منها السرايا الراكبة إلي عرفات حيث كانت تلتقي ببعض رجال ابن الزبير فتصطدم بهم التماساً لمعرفة مدي قوتهم وكان فرسان الحجاج يعودون إلي الطائف في كل الأحوال غالبين ولم يفكر ابن الزبير في أن يرسل إلي الطائف بعض طلائع جيشه ولعل السبب في ذلك أن الطائف كانت واقعة علي رأس جبل غزوان فهي بذلك الاعتبار الجغرافي كانت مدينة حصينة لا يدركها مهاجم إلا بصعوبة بالغة.

ولما طالت المناوشات بين الفريقين وكانت كفة الحجاج علي الدوام هي الراجحة وتبين له ضعف خصمه فكتب إلي الخليفة عبد الملك بن مروان يعلمه بذلك، وينبئه بما تبينه من أمر ابن الزبير من تفرق بعض أصحابه عنه، وفرار الكثيرين من جيشه وفي كتاب

الحجاج إلي الخليفة عبد الملك بن مروان طلب الحجاج من الخليفة أن يمده بالمال والرجال وأن يأذن له في دخول الحرم للقضاء علي ابن الزبير، قبل أن يعمل ابن الزبير فكره ويستجيش ويجمع إليه أنصاره من جديد.

كانت المدينة قد آلت إلي عبد الملك بن مروان بعد أن كانت في يد ابن الزبير ذلك أن عبد الملك بن مروان أوفد طارق بن عمرو لمحاربة عمال ابن الزبير علي المنطقة الواقعة بين أيلة ووادي القري فلما انتصر عليهم وخرج عامل المدينة منها ودخلها طارق كان الحجاج مقيماً بالطائف مع جيشه فلما أرسل الحجاج إلي عبد الملك يطلب إليه المدد، أرسل عبد الملك إلي طارق وقد صار والياً من قبله علي المدينة يأمره بأن يلحق بمن معه من الجنود نحو مكة فسار طارق في خمسة آلاف وأذن للحجاج في الحصار.

وبدراسة الموقع الجغرافي لمكة والمسالك المؤدية إليها وإلي غيرها من المدن نستطيع أن نقطع بأن الحجاج جاء إلي مكة عن طريق عرفات ثم مني ثم نزل إلي أرباض المدينة من شمالها الشرقي بينما جاء جيش طارق من شمال غربي المدينة عن طريق وادي فاطمة وعلي هذا فقد نزل جيش طارق بجبل (قعيقعان) في شمال

غربي الحرم، ونزل جيش الحجاج في شرقي الحرم عند بئر ميمون الواقعة بين المعلاة ومني.. وقد استغل الحجاج جبل أبي قبيس ونصب عليه المنجنيق وأقام عليه بعضاً من جيشه.

وخرج الحجاج علي رأس جيشه من الطائف متجهاً نحو مكة في غرة ذي القعدة من سنة اثنتين وسبعون من الهجرة ويروي البلاذري والدينوري أنه قال لأصحابه: (تجهزوا للحج) وهم يعلمون أنهم ذاهبون لحرب ابن الزبير.

قام الحجاج بنصب المنجنيق علي جبل أبي قبيس وقعيقعان والجبلان علي مسافة تكاد تكون متساوية من الحرم، قيل إن الحجاج أراد هدم الزيادة التي زادها ابن الزبير علي الكعبة وقد كانت هذه الزيادة من الناحية الشمالية مما يجعل رميها من كل من جبل أبي قبيس وقيقعان أمراً ميسوراً دون أن تتعرض بقية الكعبة لأحجار المنجنيق هذا إذا أحكمت الرماية علي أنه لا يمكن التسليم بأن رماية المنجنيق كانت من الدقة بحيث تصيب جزءاً من بناء محدود وهو الكعبة دون جزء آخر.. ولعل القائلين بأن الحجاج قصد من رمي المنجنيق الزيادة التي زادها ابن الزبير في الكعبة أرادوا أن يرفعوا عن الحجاج ما اعتقدوه إثماً وهو رمي الكعبة ذاتها بالمنجنيق

فالتمسوا له مخرجاً من هذا الإثم بأن قالوا أنه رمي الزيادة دون الكعبة نفسها، وسواء أرمي الحجاج الكعبة ذاتها أم الزيادة التي زادها ابن الزبير فيها فقد فعل ذلك؛ لأن بعض أعوان ابن الزبير صعدوا فوق الكعبة وصاروا يوجهون الضربات إلي جيش الحجاج الذي اضطر إلي استخدام المنجنيق لمواجهتهم.

كانت وفود الحج قد جاءت إلي مكة من كافة الأقطار الإسلامية وقد منعهم من الطواف حول البيت، ما يتعرض له الطائفون من خطر المنجنيق.

توسط أعيان مكة لدي الحجاج طالبين إليه أن يكف عن استعمال المنجنيق فأجابهم (والله إني لكاره لما ترون ولكن ماذا أصنع وقد لجأ هذا إلي البيت).

كان هناك نفوراً عاماً من استعمال المنجنيق في موسم الحج وتدخل كبار الصحابة في الأمر وعلي رأسهم عبد الله بن عمر الذي كتب إلي الحجاج يقول له (اتق الله، فإنك في شهر حرام وبلد حرام، وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيراً).

فأرسل الحجاج إلي طارق بن عمرو بأن يكف عن استعمال

المنجنيق حتي ينتهي الناس من الحج، وبالفعل استجاب الحجاج لهذه النداءات وكف عن استعمال المنجنيق حتي انتهي الناس من الطواف والغريب فعلاً أن الفريقان المتحاربان كان كل منهما يريد أن يؤدي فريضة الحج ولكن الواقع الفعلي علي الأرض كان يؤكد أن مناسك الحج كانت مقسمة بين الفريقين، ففي يد ابن الزبير الحرم والمسعي، وفي يد الحجاج مني وعرفات والجمرات، لذا كان كلا من الفريقين قد أدي الفريضة غير كاملة أداءها علي ما بيده من مناسك، فابن الزبير وأتباعه قد طافوا وسعوا ولم يقفوا بعرفة بينما الحجاج ورجاله وقفوا بعرفة ولكنهم لم يسعوا ولم يطوفوا.

وانتهي موسم الحج، ونادي الحجاج في الناس بالانصراف إلي البلاد التي أتوا منها وأن القتال سيستأنف ضد الملحد ابن الزبير.

واستمر نطاق حصار الحجاج علي مكة مضروباً وكان التراشق بين الطرفين مستمراً، وقد كانت وطأة الحصار شديدة علي أهل مكة حيث أحدثت مجاعة شديدة حتي بيع مد الذرة بعشرين درهماً، وقد كان من أثر ذلك أن خرج الكثيرون من أهل مكة إلي الحجاج مستسلمين بعد أن بعث إليهم بالأمان الذي أعطاه عبد الملك بن مروان لهم ولابن الزبير حتي قيل إنه خرج إليه عشرة آلاف منهم ابنا

عبد الله بن الزبير وهما همزة، وخبيب.

كانت المجاعة تأكل أهل مكة بينما خزائن الزبير كانت عامرة بالأقوات والأموال ولم يخرج منها من الغلال والذرة والتمر إلا ما يسد الرمق وكان يقول في ذلك: (إن أنفس أصحابي قوية ما لم يفن هذا) وقد كان ابن الزبير يتمني أن ينجح في أن يقنع أهل مكة بالكفاف حتي تنجلي غمة الحصار ويخرج من هذه الحرب منتصراً، كما كان يخشي إن فنيت أقواته أن يهرع رجاله إلي معسكر الحجاج، وقد حدث ما كان يخشاه إذ فر هؤلاء إلي معسكر الحجاج الذي كان يغمر الناس بعطاياه وكانت المؤونة فيه موفورة تأتي إليه من الشام والعراق، وكان الحال علي اليسر في معسكر الحجاج.

وبعد خروج الآلاف من أهل مكة إلي الحجاج لم يبق مع ابن الزبير إلا عدد قليل، فلما رأي ابن الزبير ذلك جمع أنصاره للتشاور في الأمر وقال لهم ما ترون؟ فقال له رجل من بني مخزوم، والله لقد قاتلنا معك حتي لا نجد مقيلاً ولئن صبرنا معك ما نزيد علي أن نموت، وإنما هي خصلتين إما أن تأذن لنا فنأخذ الإمان لأنفسنا، وإما أن تأذن لنا فنخرج.

ولقد اجمعت المصادر علي أن ابن الزبير كان في حالة عصبية

جداً إذ حدث أن حاول أخوه عروة ان يقنعه بالكتابة إلي عبد الملك ابن مروان قائلاً: (إن الله قد جعل لك إسوة في الحسن بن علي إذ خلع نفسه وبايع معاوية، فرفع ابن الزبير رجله فضرب بها عروة حتي ألقاه أرضاً).

قيل إن عبد الله بن الزبير دخل علي أمه (أسماء بنت أبي بكر) وقد بلغت من العمر مائة عام، فقال يا أماه قد خذلني الناس حتي أهلي وولدي، ولم يبقي معي إلا اليسير ومن ليس معه أكثر من صبر ساعة والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا.. فما رأيك؟ فقالت له: أنت والله يا بني أعلم بنفسك فإن كنت علي حق وإليه تدعو فأمضي له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك من يتلعب بها من غلمان بني أمية، وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن قتل معك، وإن قلت كنت علي حق فلما وهن أصحابي ضعفت فهذا ليس فعل الأحـرار، ولا أهـل الدين، كم خلودك في الدنيا؟! القتل أحسن فقال يا أماه إني أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني، فقالت يا بنى: أن الشاة لا تتألم بالسلخ فأمضي على بصيرتك واستعن بالله.

وبعد حديث طويل بينهما تناول يدها ليقبلها فقالت له: هذا وداع

فلا تبعد.. وادنو حتي أودعك، فدنا منها، فعانقها وقبلها فوقعت يدها علي الدرع؛ لأنها كانت عمياء لا تري، فقالت ما هذا؟ فقال ما لبسته إلا لأشد متنك، فقالت: إنه لا يشد متني، ولكن ألبس ثيابك مشهرة ففعل وخرج بعد أن ودعها للانضمام إلي أصحابه في الحرم.

بينما كان ذلك يجري في معسكر ابن الزبير إذ بالحجاج يخطب في أنصاره مبيناً لهم ما صارت إليه أحوال ابن الزبير فقويت نفوسهم وتقدموا فملأوا ما بين الحجون إلي الأبواء ورتب الحجاج جنده فوكل جماعة بكل باب من أبواب الحرم وكان من حسن رأيه أن جعل أهل كل جهة من جهات الشام علي باب من أبواب الحرم بذاته حتي لا تحدث فتنة وحتي تتحدد المسئولية، فجعل لأهل الأردن باب الصفا، ولأهل فلسطين باب بن جمح، ولأهل قنسرين باب بني سهم، وكان الحجاج وطارق من ناحية الأبطح إلي المروة.

وبينما كان ذلك يجري خارج أبواب الحرم كان ابن الزبير ينصح البقية الباقية من أصحابه ويرتبهم فكان مما قاله لهم: (لا يرعكم وقوع السيوف فإن ألم الدواء للجراح أشد من ألم وقعها، صونوا سيوفكم كما تصونوا وجوهكم، غضوا أبصاركم عن البارقة وليشغل كل أمرئ منكم قرنه ولا يسلم سلاحه، فإن الرجل إذا سلم سلاحه

فهو كالمرأة أعزل ولا تسألوا عني فإني في الرعيل الأول..

ثم بدأ المحاصرون من جنود الحجاج في مهاجمة ابن الزبير داخل الحرم فمرة يحمل في هذه الناحية وأخري في هذه الناحية كأنه أسد في أجمه يعدو في أثر القوم حتي يخرجهم، فلما رأي الحجاج أن الناس لا يقدمون علي ابن الزبير ترجل وأقبل يسوق الناس حتي لا يتقهقروا، وفي إحدي الحملات قتل صاحب علم ابن الزبير عند باب بني شيبة، وصار العلم بأيدي أصحاب الحجاج، فاستشاط ابن الزبير غضباً، ثم حمل علي جماعة من رجال الحجاج حتي أخرجهم من المسجد وتابعهم حتي بلغ بهم الحجون فرماه رجل بآجرة فأصابت وجهه فأرعش لها ودمي وجهه فاجتمع عليه رجال الحجاج فقتلوه وقطعوا رأسه، وكان ذلك في يوم الثلاثاء السابع عشر من جمادي الأولي سنة ثلاث وسبعون للهجرة، ولما قُتل ابن الزبير كبر أهل الشام فرحاً بقتله وبعث الحجاج برأسه ورأس عبد الله بن صفوان وعمارة بن حزم إلي المدينة فنصبت بها ثم أرسلت إلي عبد الملك بن مروان أما جثة عبد الله بن الزبير فقد صلبت علي الثنية اليمن بالحجون.

وقد أرسلت أمه إلي الحجاج تستأذنه في تكفينه ودفنه، فأبي

الحجاج ووكل بالخشبة من يحرسها وكتب إلي عبد الملك بن مروان يخبره بصلبه وما كان من أمره فكتب إليه يلومه ويقول له ألا خليت بينه وبين أمه؟ فأذن لها الحجاج بتكفينه وصلي عليه عروة وغيره ودفن بالحجون.

وبذلك انتهت معركة الحجاج مع ابن الزبير الذي استمر مخالفاً لبني أمية زهاء اثنتي عشرة سنة ينافس فيها بني أمية الخلافة حتي كادت حركته هذه أن تعصف بالدولة الأموية لولا عزيمة مروان بن الحكم وابنه عبد الملك بن مروان وكان يؤازرهم ويشد عضدهم رجال أقوياء مثل الحجاج بن يوسف الثقفي وغيره.

ويشير المؤرخون إلي أن هناك أسباباً أدت إلي هزيمة ابن الزبير مع وجوده في موطنه ومن حوله الكثيرين من الناقمين علي الأمويين والراغبين في أن يظل الحجاز مركزاً للخلافة الإسلامية وإن من أهم هذه الأسباب وفرة موارد الحجاج وقلة موارد ابن الزبير فمنذ أن خضعت العراق لعبد الملك بن مروان وابن الزبير كان من صرا في مكة لا يصله من العراق أي موارد أو نصير أو رجال كما أن الحجاج كان يغمر الناس بعطاياه ويشجعهم بذلك علي القتال بينما كان ابن الزبير حريصاً شحيحاً، كما أن استمساك ابن الزبير بالبقاء في

الحرم وعدم خروجه لمهاجمة الحجاج القادم من سفر طويل يعد من الوجهة الحربية خطأ فادح كما أنه بذلك قد عرض الحرم لسفك الدماء فيه وعرض نفسه وأصحاب لهلاك محقق هكذا يقول البعض هذا ولكن هناك رأي مختلف عن ذلك تماماً بل ونقيضه بالتمام.

ماذا قال ابن كثير
عن واقعة الحجاج مع ابن الزبير؟!

الواقعة كما رواها ابن كثير

ماذا كتب ابن كثير في البداية والنهاية عن واقعة الحجاج مع ابن الزبير؟

قال ابن كثير: (فلما استهلت هذه السنة (أي سنة 73هـ) استهلت وأهل الشام محاصرون أهل مكة، وقد نصب الحجاج المنجنيق على مكة ليحصر أهلها، حتى يخرجوا إلى الأمان والطاعة لعبد الملك. وكان مع الحجاج خلق قد قدموا عليه من أرض الحبشة، فجعلوا يرمون بالمنجنيق فقتلوا خلقاً كثيراً، وكان معه خمسة مجانيق، فألح بالرمي من كل مكان وحبس عنهم الميرة، فجاعوا، وكانوا يشربون من ماء زمزم، وجعلت الحجارة تقع في الكعبة، والحجاج يصيح بأصحابه: يا أهل الشام، الله، الله في الطاعة. فكانوا يحملون على ابن الزبير وليس معه أحد حتى يخرجهم من باب بني شيبة، ثم يكرون عليه فيشد عليهم، فعل ذلك مراراً، وقتل يومئذ جماعة منهم، وهو يقول: خذها وأنا ابن الحواري. وقيل لابن الزبير: ألا تكلمهم في الصلح؟ فقال: والله لو وجدوكم في جوف الكعبة لذبحوكم جميعاً، والله لا أسألهم صلحاً أبداً.

وذكر غير واحد: أنهم لما رموا بالمنجنيق، جاءت الصواعق

والبروق والرعود، حتى جعلت تعلو أصواتها على صوت المنجنيق، ونزلت صاعقة فأصابت من الشاميين اثني عشر رجلاً، فضعفت عند ذلك قلوبهم عن المحاصرة، فلم يزل الحجاج يشجعهم، ويقول: إني خبير بهذه البلاد، هذه بروق تهامة ورعودها وصواعقها، وإن القوم يصيبهم مثل الذي يصيبكم، وجاءت صاعقة من الغد، فقتلت من أصحاب ابن الزبير جماعة كثيرة أيضاً، فجعل الحجاج يقول: ألم أقل لكم: إنهم يصابون مثلكم، وأنتم على الطاعة وهم على المخالفة؟ وكان أهل الشام يرتجزون وهم يرمون بالمنجنيق.

فنزلت صاعقة على المنجنيق فأحرقته، فتوقف أهل الشام عن الرمي والمحاصرة، فخطبهم الحجاج فقال: ويحكم ألم تعلموا أن النار كانت تنزل على من قبلنا فتأكل قربانهم إذا تقبل منهم؟ فلولا أن عملكم مقبول ما نزلت النار فأكلته، فعادوا إلى المحاصرة.

ومازال أهل مكة يخرجون إلى الحجاج بأمان، ويتركون ابن الزبير، حتى خرج إليه قريب من عشرة آلاف فأمنهم، وقل أصحاب ابن الزبير جداً، فأخذا لأنفسهما أماناً من الحجاج، فأمنهما.

قالوا وكان يخرج من باب المسجد حرام وهناك خمسمائة فارس فيجعل عليهم فيتفرقون عنه يميناً وشمالاً، ولا يثبت له أحد، وهو

يقول:

إني إذا أعرف يومي أصبره

إذ بعضهم يعرف ثم ينكر

ويقول أيضاً:

الموت أكرمن من أعطاء منقصه

مَنٌ لم يمت غبطه فالغاية الهرم

وكانت أبواب الحرم قد قل مَنٌ يحرسها من أصحاب ابن الزبير، وكان لأهل حمص حصار الباب الذي يواجه الكعبة، ولأهل دمشق باب بني شيبة، ولأهل الأردن باب الصفا، ولأهل فلسطين باب بني جمح، ولأهل قنسرين باب بني سهم، وعلى كل باب قائد ومعه أهل تلك البلاد، وكان الحجاج، وطارق بن عمرو في ناحية الأبطح.

ولقد كان حجر المنجنيق يقع على طرف ثوبه فلا ينزعج بذلك، ثم يخرج إليهم فيقاتلهم كأنه أسد ضار، حتى جعل الناس يتعجبون من إقدامه وشجاعته، فلما كان ليلة الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى من هذه السنة، بات ابن الزبير يصلي طول ليلته، ثم جلس فاحتبى بحميلة سيفه فأغفى، ثم انتبه مع الفجر على عادته، ثم قال:

أذن يا سعد. فأذن عند المقام، وتوضأ ابن الزبير ثم صلى ركعتي الفجر ثم أقيمت الصلاة، فصلى الفجر، ثم سلم فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال لأصحابه: ما أراني اليوم إلا مقتولاً، فإني رأيت في منامي كأن السماء فرجت لي فدخلتها، وإني والله قد مللت الحياة، وجاوزت سني اثنتين وسبعين سنة، اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي. ثم قال: اكشفوا عن وجوهكم حتى أنظر إليكم، فكشفوا عن وجوههم وعليهم المغافر، فحرضهم وحثهم على القتال والصبر، ثم نهض بهم فحمل إلى الحجون، فجاءته آجرة فأصابته في وجهه، فارتعش لها، فلما وجد سخونة الدم يسيل على وجهه تمثل بقول بعضهم:

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا

ولكن على أقدامنا تقطر الدما

ثم رجع فجاءه حجر منجنيق من ورائه فأصابه في قفاه فوقذه، ثم وقع إلى الأرض على وجهه، ثم انتهض فلم يقدر على القيام، وابتدره الناس، فشد عليه رجل من أهل الشام، فضرب الرجل فقطع رجليه وهو متكئ على مرفقه الأيسر، وجعل يضرب وما يقدر أن ينتهض، حتى كثروا عليه، فابتدروه بالسيوف، فقتلوه، وجاءوا إلى

الحجاج فأخبروه، فخر ساجداً قبحه الله، ثم قام هو وطارق بن عمرو حتى وقفا عليه وهو صريع، فقال طارق: ما ولدت النساء أذكر من هذا. وكان من أثر هذا الظفر أن أسند الخليفة إلي الحجاج ولاية الحجاز مكافأة له علي نجاحه، وكانت تضم مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليه اليمن واليمامة.

فكان عند حُسن ظن الخليفة وأظهر حزماً وعزماً في إدارته، حتي تحسنت أحوال الحجاز فأعاد بناء الكعبة وبني مسجد ابن سلمة في المدينة المنورة وحفر الآبار وشيد السدود.

ذات النطاقين والحجاج

دخل عبد الله بن الزبير على أمه فشكا إليها خذلان الناس له، وخروجهم إلى الحجاج حتى أولاده وأهله، وأنه لم يبق معه إلا اليسير، ولم يبق لهم صبر ساعة، والقوم يعطونني ما شئت من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت: يا بني أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق وتدعو إلى حق فاصبر عليه فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك مَنْ يلعب بها مِنْ غلمان بني أمية، وإن كنت تعلم أنك إنما أردت الدنيا فلبئس العبد أنت، أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك، وإن كنت على حق فما وهن الدين وإلى كم خلودكم في الدنيا؟ القتل أحسن. فدنا منها فقبل رأسها وقال: هذا والله رأيي، ثم قال: والله ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمته، ولكنني أحببت أن أعلم رأيك، فزدتيني بصيرة مع بصيرتي. فانظري يا أماه فإني مقتول في يومي هذا فلا يشتد حزنك، وسلمي لأمر الله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عمل بفاحشة قط، ولم يجر في حكم الله، ولم يغْدُرْ في أمان، ولم

يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظلم عن عامل فرضيته بل أنكرته، ولم يكن عندي آثر من رضى ربي عز وجل. اللهم إني لا أقول هذا تزكية لنفسي، اللهم أنت أعلم بي مني ومن غيري، ولكني أقول ذلك تعزية لأمي لتسلو عني، فقالت أمه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسنا، إن تقدمتني أو تقدمتك، ففي نفسي اخرج يا بني حتى أنظر ما يصير إليه أمرك. فقال: جزاك الله يا أمه خيرا فلا تدعي الدعاء قبل وبعد. فقالت: لا أدعه أبدا لمن قتل على باطل فلقد قتلت على حق، ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبره بأبيه وبي، اللهم إني قد سلمته لأمرك فيه ورضيت بما قضيت فقابلني في عبد الله بن الزبير بثواب الصابرين الشاكرين.

ثم قالت له: أدن مني أودعك فدنا منها، فقبلته ثم أخذته إليها فاحتضنته لابساً درعاً من حديد فقالت له (يا بني ما لباس من يريد ما يريد من الشهادة) فقال: يا أماه أغالبته لأطيب خاطرك وأسكن قلبك.

قالت: لا يا بني ولكن انزعه فنزعه، وجعل يلبس بقية ثيابه ويتشدد وهي تقول وشمر ثيابك وجعل يتحفظ من أسفل لئلا تبدو عورته إذا قتل وجعلت تذكره أمية الزبير وجده أبي بكر الصديق وجدته صفية

بنت عبد المطلب وخالته عائشة زوج رسول الله وتزجيه القدوم عليهم إذا هو قتل شهيداً ثم خرج من عندها فكان ذلك آخر عهده بها رضي الله عنها وعن أبيه وأبيها، ثم قالت: أمضي علي بصيرتك، فودعها وهو يقول:

لست بميتاع الحياة يسبه

ولا مرقق من خشية الموت

وقال ابن كثير (قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن يوسف بن عوف عن أبي الصديق الناجي أن الحجاج دخل علي أسماء بنت أبي بكر بعدما قتل ابنها عبد الله فقال:

إن ابنك ألحد في هذا البيت. وإن الله أذاقه من عذاب أليم وفعل به وفعل فقالت كذبت كان باراً بوالديه، صواماً قواماً. والله لقد أخبرنا رسول الله أنه يخرج من ثقيف كذابان:

الآخر منهما شر من الأول وهو مبير، وعن أسماء بنت أبي بكر قالت:

سمعت أن رسول الله. نهي عن المثلة وسمعته يقول (يخرج من ثقيف رجلان، كذاب ومبير قالت:

فقلت للحجاج:

أما الكذاب فقد رأيناه وأما المبير فأنت هو يا حجاج).

وفي صحيح مسلم رقم 2545 /229 أن أسماء قالت: (أما أن رسول الله حدثنا أنه يخرج من ثقيف رجلان كذاباً ومبيراً فأما الكذب فرأيناه، وأما المبير فلا أخالك إلا إياه، فقام عنها ولم يراجعها).

الحجاج بن يوسف الثقفي والإمام الزاهد الحسن البصري

الحجاج بن يوسف الثقفي
والإمام الزاهد الحسن البصري

بني الحجاج بن يوسف الثقفي قصراً فاخراً لا مثيل له في بغداد ودعا الناس لمشاهدته للانبهار به، فاغتنم الإمام الزاهد الحسن البصري هذه الفرصة لتجمع الناس منبهرين بقصر الحجاج هذا وأراد الحسن البصري أن يعظ الناس ويذكرهم بالآخرة ويزهدهم بعرض الدنيا فوقف فيهم خطيباً وقال:

(لقد نظرنا فيما ابتني أخبث الأخبثين، فوجدنا فرعون قد شيد أعظم مما شيد، وبنا أعلي مما بنا، ثم أهلك الله فرعون وأتي علي ما بنا وشيد.. ليت الحجاج يعلم أن أهل السماء قد مقتوه وأن أهل الأرض قد غروه).

وفي اليوم التالي دخل الحجاج إلي مجلسه وهو يتميز من الغيظ وقال لجلسائه تباً لكم ما شاء أن يقول ثم لا يجد فيكم من يرده أو ينكر عليه والله لأسقينكم من دمه يا معشر الجبناء، ثم أمر بالسيف

وبإحضار الحسن البصري.

وحضر الإمام الزاهد الشجاع الحسن البصري فلما رأي السيف والجلاد حرك شفتيه ثم أقبل علي الحجاج وعليه جلال المؤمن وعزة المسلم ووقار الداعية إلي الله، فلما رآه الحجاج هابه أشد الهيبة وقال له:

ها هنا يا أبا سعيد، ها هنا يا أبا سعيد، والناس ينظرون في دهشة واستغراب حتي أجلسه علي فراشه وأخذ يسأله عن أمور الدين والحسن البصري يجيبه.. ثم قال له الحجاج:

أنت سيد العلماء يا أبا سعيد، ثم دعا بطيب و طيب لحيته وودعه.

ولما خرج الحسن البصري من عنده تبعه حاجب الحجاج وقال له يا أبا سعيد لقد دعاك الحجاج لغير ما فعل بك وإني رأيتك قد حركت شفتيك عندما أقبلت عليه، فماذا قلت؟

فقال الحسن البصري: لقد قلت.. يا ولي نعمتي وملاذي عند كربتي اجعل نقمته برد وسلاماً عليَّ، كما جعلت النار برداً وسلاماً علي إبراهيم عليه السلام.

من أشهر خطب الحجاج

من أشهر خطب الحجاج

(1) من خطبته حين ولي العراق

حدث عبد الملك بن عمير الليثي قال: بينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة وأهل الكوفة يومئذ ذو حال حسنة يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه إذ أتى آت فقال هذا الحجاج قد قدم أميراً على العراق فإذا به قد دخل المسجد معتماً بعمامة قد غطي بها أكثر وجهه متقلدا سيفا متنكبا قوسا يؤم المنبر فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر فمكث ساعة لا يتكلم فقال الناس بعضهم لبعض قبح الله بني أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق حتى قال عمير بن ضابئ البرجمي ألا أحصبه لكم فقالوا أمهل حتى ننظر فلما رأى عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال: أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى ثم قال يأهل الكوفة أما والله إني لأحمل الشر بحمله وأحذوه بنعله وأجزيه بمثله وإني لأري أبصارا طامحة وأعناقا متطاولة ورءوسا قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى تترقرق

ثم قال: هذا أوان الشد فاشتدي زيم قد لفها الليل بسواق حطم ليس براعي إبل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم قد لفها الليل بعصلبي أروع خراج من الدوي مهاجر ليس بأعرابي قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجدوا وليس القوس فيها وتر عردمثل ذراع البكر أو أشد لا بد مما ليس منه بد إني والله يأهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق ما يقعقع لي بالشنان ولا يغمز جانبي كتغماز التين ولقد فررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة وجريت إلى الغاية القصوى وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمرها عودا وأصلبها مكسرا فرماكم بي لأنكم طالما أوضعتم في الفتن واضطجعتم في مراقد الضلال وسننتم سنن الغي أما والله لألحونكم لحو العصا ولأقرعنكم قرع المروءة ولأعصبنكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل فإنكم لى كأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون وإني والله لا أعد إلا وفيت ولا أهم إلا أمضيت ولا أخلق إلا فريت فإياي وهذه الشفعاء والزرافات والجماعات وقالا وقيلا وما تقول وفيم أنتم وذاك أما والله لتستقيمن على طريق الحق

أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة وإني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه وأنهبت ماله وهدمت منزله

(2) خطبة الحجاج حين ولي العراق (رواية أخرى لنفس الخطبة السابقة)

قال عبد الملك بن عمير: بينا نحن جلوس في المسجد الأعظم بالكوفة إذا أتانا آت فقال: هذا الحجاج بن يوسف، قد قدم أميراً على العراق فاشرأب نحوه الناس، وأفرجوا له إفراجة عن صحن المسجد، فإذا نحن به يتبهنس في مشيته، عليه عمامة خز حمراء، منتكباً قوساً عربية، يؤم المنبر، فما زلت أرمقه ببصري حتى صعد المنبر، فجلس عليه، وما يحدر اللثام عن وجهه، وأهل الكوفة حينئذ لهم حال حسنة، وهيئة جميلة، وعز ومتعة، يدخل الرجل منهم المسجد ومعه عشرة أو عشرون من مواليه، عليهم الخزور والفوهية، وفي المسجد رجل يقال له: عمير بن ضابئ البرجمي، فقال: لمحمد ابن عمر التميمي، هل لك أن أحصبه؟ قال: لا حتى أسمع كلامه، فقال: لعن الله بني أمية! يستعملون علينا مثل هذا، ولقد ضيع العراق

حين يكون مثل هذا أميراً عليه، والله لو كان هذا كله كلاماً ما كان شيئاً، والحجاج ينظر يمنة ويسرة، حتى غص المسجد بأهله، فقال: يا أهل العراق! إني لا أعرف قدر اجتماعكم إلا اجتمعتم، قال رجل: نعم- أصلحك الله- فسكت هنيهة لا يتكلم، فقالوا: ما يمنعه من الكلام إلا العي والحصر، فقام فحدر لثامه، وقال: يا أهل العراق! أنا الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود.

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

أما و الله فإني لأحمل الشر بثقله و أحذوه بنعله و أجزيه بمثله، والله يا أهل العراق إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها، والله لكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى. ثم قال: والله يا أهل العراق، إن أمير المؤمنين عبد الملك نثل كنانة بين يديه، فعجم عيدانها عوداً عوداً، فوجدني أمرها عوداً، وأشدها مكسراً، فوجهني إليكم، ورماكم بي. يا أهل العراق، يا أهل النفاق والشقاق ومساوئ الأخلاق، إنكم طالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مناخ الضلال، وسننتم سنن الغي، وأيم الله لألحونكم لحو العود، ولأقرعنكم قرع المروة، ولأعصبنكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، إني والله لا أحلق إلا فريت، ولا أعد إلا وفيت، إياي

وهذه الزرافات، وقال وما يقول، وكان وما يكون، وما أنتم وذاك؟.

يا أهل العراق! إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرتم بأنعم الله، فأتاها وعيد القرى من ربها، فاستوسقوا واعتدلوا، ولا تميلوا، واسمعوا وأطيعوا، وشايعوا وبايعوا، واعلموا أنه ليس مني الإكثار والإبذار والأهذار، ولا مع ذلك النفار والفرار، إنما هو انتضاء هذا السيف، ثم لا يغمد في الشتاء والصيف، حتى يذل الله لأمير المؤمنين صعبكم، ويقيم له أودكم، وصغركم، ثم إني وجدت الصدق من البر، ووجدت البر في الجنة، ووجدت الكذب من الفجور، ووجدت الفجور في النار، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وإشخاصكم لمجاهدة عدوكم وعدو أمير المؤمنين، وقد أمرت لكم بذلك، وأجلتكم ثلاثة أيام، وأعطيت الله عهداً يؤاخذني به، ويستوفيه مني، لئن تخلف منكم بعد قبض عطائه أحد لأضربن عنقه. ولينهبن ماله. ثم التفت إلى أهل الشام فقال: يا أهل الشام! أنتم البطانة والعشيرة، والله لريحكم أطيب من ريح المسك الأزفر، وإنما أنتم كما قال الله تعالى: (ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء)، والتفت إلى أهل العراق فقال: لريحكم أنتن من ريح الأبخر، وإنما

أنتم كما قال الله تعالى: (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار).

اقرأ كتاب أمير المؤمنين يا غلام: فقال القارئ: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالعراق من المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله، فسكتوا فقال الحجاج من فوق المنبر: أسكت يا غلام، فسكت، فقال: يا أهل الشقاق، ويا أهل النفاق ومساوئ الأخلاق. يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون السلام؟ هذا أدب ابن أبيه؟ والله لئن بقيت لكم لأؤدبنكم أدباً سوى أدب ابن أبيه، ولتستقيمن لي أو لأجعلن لكل امرئ منكم في جسده وفي نفسه شغلاً، اقرأ كتاب أمير المؤمنين يا غلام، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم فلما بلغ إلى موضع السلام صاحوا وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته، فأنهاه ودخل قصر الإمارة .

(3) من خطبة الحجاج بن يوسف الثقفي حينما سمع تكبيراً في السوق

فلما كان اليوم الثالث خرج من القصر فسمع تكبيرا في السوق فراعه ذلك فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال :

يأهل العراق يأهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق وبني اللكيعة وعبيد العصا وأولاد الإماء والفقع بالقرقر إني سمعت تكبيرا لا يراد الله به وإنما يراد به الشيطان ألا إنها عجاجة تحتها قصف وإنما مثلي ومثلكم ما قال عمرو بن براق الهمذاني :

وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم فهل أنا في ذايا لهمدان ظالم متى تجمع القلب الذكي وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظالم والله لا تقرع عصا عصا إلا جعلتها كأمس الدابر.

(4) من خطبة الحجاج بن يوسف الثقفي حينما قدم البصرة

عندما قدم الحجاج بن يوسف الثقفي البصرة في أول خطبة له أخذ يهدد ويتوعد فقال:

أيها الناس من أعياه داؤه فعندي دواؤه ومن استطال أجله فعلي أن أعجله ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله ومن استطال ماضي عمره قصرت عليه باقيه إن للشيطان طيفا وللسلطان سيفا فمن سقمت سريرته صحت عقوبته ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه ومن لم تسعه العافية لم تضق عنه الهلكة ومن سبقته بادرة فمه سبق بدنه بسفك دمه.

إني أنذر ثم لا أنظر وأحذر ثم لا أعذر وأتوعد ثم لا أعفو إنما أفسدكم ترنيق ولاتكم ومن استرخى لببه ساء أدبه إن الحزم والعزم سلباني سوطي وأبدلاني به سيفي فقائمه في يدي ونجاده في عنقي وذبابه قلادة لمن عصاني والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه .

(5) من خطبة الحجاج بن يوسف الثقفي بعد وقعة دير الجماجم

خطب الحجاج بن يوسف الثقفي في أهل العراق بعد وقعة دير الجماجم فقال:

يأهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف ثم أفضي إلى المخاخ والأصماخ ثم ارتفع فعشش ثم باض وفرخ فحشاكم نفاقا وشقاقا وأشعركم خلافا اتخذتموه دليلا تتبعونه وقائدا تطيعونه ومؤامرا تستشيرونه فكيف تنفعكم تجربة أو تعظكم وقعة أو يحجزكم إسلام أو ينفعكم بيان؟

ألستم أصحابي بالأهواز حيث رمتم المكر وسعيتم بالغدر واستجمعتم للكفر وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته وأنا أرميكم

بطرفي وأنتم تتسللون لواذا وتنهزمون سراعا ثم يوم الزاوية وما يوم الزاوية بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليكم عنكم إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها النوازع إلى أعطانها لا يسأل المرء عن أخيه ولا يلوي الشيخ على بنيه حتى عضكم السلاح وقصمتكم الرماح ثم يوم دير الجماجم وما يوم دير الجماجم بها كانت المعارك والملاحم .

يأهل العراق والكفرات بعد الفجرات والغدرات بعد الخترات والزوات بعد النزوات إن بعثتكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم وإن أمنتم أرجفتم وإن خفتم نافقتم لا تذكرون حسنة ولا تشكرون نعمة هل استخفكم ناكث أو استغواكم غاو أو استنصركم ظالم أو استعضدكم خالع إلا تبعتموه وآويتموه ونصرتموه وزكيتموه.

يأهل العراق ألم تنهكم المواعظ؟ ألم تزجركم الوقائع؟ ثم التفت إلى أهل الشام وهم حول المنبر فقال :

يأهل الشام إنما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه ينفي عنها المدر ويباعد عنها الحجر ويكنها من المطر ويحميها من الضباب ويحرسها من الذئاب يأهل الشام أنتم الجنة والرداء.

(6) من خطبة الحجاج بن يوسف الثقفي لأهل الكوفة:

يأهل الكوفة إن الفتنة تلقح بالنجوى وتنتج بالشكوى وتحصد بالسيف أما والله إن أبغضتموني لا تضروني وأن أحببتموني لا تنفعوني وما أنا بالمستوحش لعدواتكم ولا المستريح إلى مودتكم زعمتم أني ساحر وقد قال الله تعالى ولا يفلح الساحر وقد أفلحت وزعمتم أني أعلم الاسم الأكبر فلم تقاتلون من يعلم ما لا تعلمون ثم التفت إلى أهل الشام فقال :

لأزواجكم أطيب من المسك ولأبناؤكم آنس بالقلب من الولد وما أنتم إلا كما قال أخو بني ذبيان إذا حاولت في أسد فجورا فإني لست منك ولست مني هم درعي التي استلأمت فيها إلى يوم النسار وهم مجني ثم قال بل أنتم يأهل الشام كما قال الله سبحانه: (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون).

(7) من خطبة أخرى للحجاج بالبصرة:

فقال: قال الله تعالى: (فاتقوا الله ما استطعتم فهذه لله وفيها مثوبة)، وقال واسمعوا وأطيعوا وهذه لعبد الله وخليفة الله وحبيب

الله عبد الملك بن مروان أما والله لو أمرت الناس أن يأخذوا في باب واحد فأخذوا في باب غيره لكانت دماؤهم لي حلالا من الله ولو قتل ربيعة ومصر لكان لي حلالا عذيرى من أهل هذه الحميراء يرمي أحدهم بالحجر إلى السماء ويقول يكون إلى أن يقع هذا خير.

والله لأجعلنهم كالرسم الدائر وكالأمس الغابر عذيرى من عبد هذيل يقرأ القرآن كأنه رجز الأعراب أما والله لو أدركته لضربت عنقه يعني عبد الله بن مسعود عذيرى من سليمان بن داود يقول لربه رب أغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي كان والله فيما علمت عبدا حسودا بخيلاً.

(8) من خطبة أخرى للحجاج بالبصرة

بعد أن حمد الله وأثني عليه وقال:

إن الله كفانا مئونة الدنيا وأمرنا بطلب الآخرة فليته كفانا مئونة الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا مالي أرى علماءكم يذهبون وجهالكم لا يتعلمون وشراركم لا يتوبون مالي أراكم تحرصون على ما كفيتم وتضيعون ما به أمرتم إن العلم يوشك أن يرفع ورفعه ذهاب العلماء ألا وإني أعلم بشراركم من البيطار بالفرس الذين لا يقرءون القرآن

إلا هجرا ولا يأتون الصلاة إلا دبرا ألا وإن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر ألا وإن الآخرة أجل مستأخر يحكم فيها ملك قادر.

ألا فاعملوا وأنتم من الله على حذر واعلموا أنكم ملاقوه ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ألا وإن الخير كله بحذافيره في الجنة ألا وإن الشر كله بحذافيره في النار ألا وإن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وأستغفر الله لي ولكم.

(9) خطبة الحجاج عندما علم بموت ابنه محمد وأيضاً أخيه محمد في يوم واحد

قيل لقد أتاه غداة الجمعة خبر وفاة ابنه محمد بن الحجاج فلما كان بالعشي أتاه بريد من اليمن بوفاة محمد أخيه ففرح أهل العراق، فخرج فصعد المنبر وكان مما قاله:

أيها الناس محمدان في يوم واحد أما والله ما كنت أحب أنهما معي في الحياة الدنيا لما أرجو من ثواب الله لهما في الآخرة وأيم الله ليوشكن الباقي مني ومنكم أن يفنى والجديد أن يبلي والحي مني ومنكم أن يموت وأن تدال الأرض منا كما أدلنا منها فتأكل من لحومنا

وتشرب من دمائنا كما مشينا على ظهرها وأكلنا من ثمارها وشربنا من مائها ثم نكون كما قال الله تعالى ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ثم تمثل بهذين البيتين:

عزائي نبي الله من كل ميت

وحسبي ثواب الله من كل هالك

إذا ما لقيت الله عني راضيا

فإن سرور النفس فيما هنالك

قصص
ومواقف في حياة الحجاج

قصص ومواقف من حياة الحجاج

حياة الحجاج مليئة بالمواقف التي دونتها المراجع والمصادر التاريخية منها ما يلي:

(1) الحجاج يبرر قتل عبد الله بن الزبير

ومما يروي عن قدرة الحجاج وامتلاكه لمنطق الإقناع، ولو أدي إلي قلب الحقائق موقفه من قتل عبد الله بن الزبير بن العوام – رضي الله عنهما – وما كان من شأن التابعي الجليل مالك بن دينار- رضي الله عنه – بمقولة تكشف وأن لم تصرح عن هذا القدرة التي هي في النهاية نوع من مراوغة الثعالب إذ أنه: لما قتل عبد الله بن الزبير ارتجفت مكة بالبكاء، فأمر الحجاج الناس، فجمعوا بالمسجد ثم صعد المنبر، فحمد الله وأثني عليه ثم قال: يا أهل مكة، بلغني بكاؤكم وأسفكم واستقطاعكم قتل عبد الله بن الزبير، ألا وأن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة، حتي رغب في الخلافة ونازع فيها أهلها، فخلع طاعة الله واستكن بحرم الله ولو كان شيء مانع للعصارة

لمنعت آدم حرمة الجنة؛ لأن الله تعالي خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وأسكنه جنته، فلما عصا أخرجه من الجنة بخطيئته وآدم أعلي عند الله من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمة من الكعبة فأذكروا الله يذكركم ونزل. قال مالك بن دينار – رضي الله عنه –: ربما سمعت الحجاج يذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم فيقع في نفس أنهم يظلمونه لبيانه وحسن تخلصه.

(2) الحجاج جعل البستاني يدعي الجنون

ومما يروي من المواقف الطريفة ما ذكره أبو الحسن محمد بن هلال أن الحجاج انفرد يوماً عن عسكره، فمر بستاني يسقي ضيعة له فقال له: كيف حالكم مع الحجاج؟ فقال: لعنه الله! المبيد المثير للفتن، يعجل الله له الانتقام قال له: أتعرفني؟ قال لا قال: أنا الحجاج فرأي أن دمه قد طاح فرفع عصا كانت معه وقال: أتعرفني، أنا أبو ثور المجنون، وهذا يوم صرعي – وأرغي وأزبد وهاج وأراد أن يضرب رأسه بالعصا فضحك منه وانصرف.

(3) قصة الحجاج مع هند بنت المهلب

كانت هند بنت المهلب من أجمل نساء العرب في زمانها، تفوق وصيفاتها حسناً وجمالاً وفصاحة، فسمع عن جمالها الحجاج بن يوسف الثقفي فتزوجها وهي كارهة له ومجبرة، فلم يكن الحجاج في زمانه يرفض له طلب خشية منه ومن غضبه وقسوته وجبروته فتزوجته وبذل الحجاج مالاً كثيراً وجعل مؤخر صداقها مئتي ألف درهم فدخل بها ومكث معها زمناً.

وفي ذات يوم دخل عليها الحجاج ولم تكن تراه وهو خلفها وكانت تنظر لنفسها في المرآة، وتأملت جمالها وهي تمشط شعرها فأنشدت تقول:

وما هند إلا مهرة عربية

سليلة أفراس تحللها بغل

فإن ولدت فحل فلله درها

وإن ولدت بغل فقد جاء به البغل

فلما سمع الحجاج بن يوسف ذلك انصرف راجعاً ولم تكن تعلم به، فأراد الحجاج طلاقها فبعث إليها عبد الله بن طاهر يطلقها،

فدخل عليها عبد الله بن طاهر وقال لها: يقول لك الحجاج إن لك عليه الصداق مائتي ألف درهم، وقد أحضرتها معي، وقد أوكلني في طلاقك.

فقالت له: يا ابن طاهر إنا كنا معه فوالله ما فرحنا به يوماً وإن تفرقنا والله لا نندم عليه قط، وهذه المئتي ألف درهم هدية بشارة بخلاصي من كلب بن ثقيف.

وفي رواية أخري قيل إنه أرسل جاريتها لها وقال لها قولي لها كلمتي لا أكثر (كنت.. فكنت) فقالت لها هند أذهبي فأنت حرة جزاءاً لبشارتك بخلاصي من كلب بن ثقيف.

فسمع بقصتها عبد الملك بن مروان فأعجبته بعد الذي سمعه عن جمالها وفطنتها، وقيل لا عيب فيها غير أن صدرها كبيراً فقال عبد الملك وما عيب الصدر تشبع الرضيع به، فتقدم لخطبتها فأرسلت له كتاباً مع رسوله قائلة:

(بعد السلام والثناء، أعلم يا أمير المؤمنين إن الإناء ولغ فيه الكلب) فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك، وكتب لها يقول: (إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً).

فلما قرأت كتابه كتبت إليه قائلة:

(أجري العقد إلا بشرط، فإن قلت ما الشرط؟ أقول أن يقود الحجاج محملي (هودجي) إلي بلدك التي أنت فيها ويكون حافياً، وملبوسه الذي كان يلبسه قبل أن توليه أميراً).

فلما قرأ عبد الملك الرسالة وافق علي ما جاء فيها، وأمر الحجاج أن ينفذ ما أمره بها، فذهب الحجاج إلي بيت هند بنت النعمان طليقته، فركبت المحمل، وركب حولها جواريها، وخدمها، فرجل الحجاج وهو حافي القدم، وأخذ بزمام البعير يقوده، فضحكت هند وهي تحادث وصيفتها فقال لها الحجاج: فإن تضحكي مني فيا طول ليلة تركتك فيها كالقباء المفرج.

فرددت عليه علي الفور قائلة وهي تفتخر بزوجها الخليفة:

وما نبالي إذا أرواحنا سلمت

بما فقدناه من مال ومن نشب

فالمال مكتسب والعز مرتجع

إذا النفوس وقاها الله من عطب

وعندما وصلت إلي الخليفة عبد الملك رمت من يدها ديناراً علي

الأرض وقالت للحجاج أيها الجمال: إنه سقط منا درهماً فأرفعه، فنظر الحجاج إلي الأرض وقال إنه دينار وليس درهم، فقالت الحمد لله الذي أبدلنا من الدرهم بدينار.. فأسرها الحجاج في نفسه.

هذه رواية تم تداولها واشتهرت في معظم المصادر التاريخية التي تحدثت عن الحجاج بن يوسف الثقفي، وعلي الرغم من عدم وجود مصدر تاريخي قديم موثوق به يؤيد هذه الرواية إلا أنها قد تم تداولها علي نطاق واسع والله أعلم بمدي صحتها.

(4) غرق الحجاج في النهر

كان الحجاج يوماً يسبح في نهر، وأخذه التيار بعيداً عن الشاطئ وكاد أن يغرق في النهر فصاح بأعلي صوته وقال انقذوني، فلم يسمعه الحرس، ولم يسمعه إلا شاب فقير وكان الشاب لا يعرف الحجاج فقفز مسرعاً نحوه وأخذ في إنقاذه، فأخرج الحجاج مما كان فيه، فنظر إليه الحجاج وقال له تمني علي، فقال الشاب ماذا أتمني من رجل عاري الجسد لا يملك شيئاً فقال الحجاج تمني وستجد ما تتمناه ألا تعلم من أنا؟ فقال الشاب.. لا .. لا أعلم إلا أنك كنت مشرفاً علي الموت.. فقال الحجاج: أنا الحجاج بن يوسف، ففزع الشاب وقال الآن أتمني عليك فقال الحجاج تمن وأطلب ما تريد..

فقال الشاب: أسألك بالله عندما يسألك القوم من أنقذك، فلا تقل إنني الذي أنقذتك وهذا ما أتمناه!

(5) الحجاج ومجنون بني عجل

يحكي أن الحجاج خرج يوماً متنزهاً فلما فرغ من نزهته صرف عنه أصحابه وانفرد بنفسه فإذا هو بشيخ من بني عجل، فقال له: من أين أيها الشيخ؟

قال له: من هذه القرية.

قال: كيف ترون عمالكم.

قال: شر عمال، يظلمون الناس، ويستحلون أموالهم.

قال: فكيف قولك في الحجاج.

قال: ذاك ما ولي العراق شر منه، قبحه الله، وقبح من استعمله.

قال: أتعرف من أنا.

قال: لا، قال: أنا الحجاج.

قال: جعلت فداك أو تعرف من أنا؟

قال: لا قال فلان بن فلان مجنون بن عجل أصرع في كل يوم مرتين، قال فضحك الحجاج منه وتركه ينصرف.

(6) الحجاج والأعرابي وصيام أيام الحر

يقال: كان الحجاج بن يوسف الثقفي علي ما به من صلف وتجبر وحب لسفك الدماء جواداً كريما لا تخلو موائده كل يوم من الآكلين وكان يرسل إلي مستطعميه الرسل، ولما شق عليه ذلك قال لهم: رسولي إليكم الشمس إذا طلعت، فاحضروا للفطور وإذا غربت فاحضروا للعشاء.

وحدث أنه خرج يوماً لصيد ، وكان معه أعوانه وحاشيته ، ولما حضر غداؤه.

قـــال لأصحابه التمسوا من يأكل معنا فتفرقوا كل إلى جهة فلم يجدوا إلا أعرابيا فاتو به .

فـقــال له الحجاج : هلم يا أعرابي فكل .

قــال الأعرابي : لقد دعاني من هو أكرم منك فأجبته .

قــال الحجاج ومن هو؟.

قــال الأعرابي: الله سبحانه وتعالى ، دعاني إلى الصوم فأنا صائم ..

قــال الحجاج : صوم مثل هذا اليوم على حره ؟

قـال الأعرابي : صمت ليوم هو أحر منه .

قـال الحجاج فأفطر اليوم وصم غداً.

قـال الأعرابي : أو يضمن لي الأمير أن أعيش غدا.

قـال الحجاج : ليس لي إلى ذلك سبيل.

قـال الأعرابي : فكيف تطلب مني عاجلاً بآجل ليس عليه سبيل؟.

قـال الحجاج أنه طعام طيب.

قـال الأعرابي : والله ما طيبه خبازك ولا طباخك ولكن طيبته العافية.

فقال الحجاج: أبعدوه عني.

(7) قصة الحجاج والغلامين

يقال إن الحجاج اشتري غلامين، أحدهما أسود والآخر أبيض، فقال لهما كل واحد يمدح نفسه ويذم الآخر.

وبدأ الأسود حديثه قائلاً:

ألم تري أن المسك لا شيء مثله

وأن بياض اللفت حمل بدرهم

وأن سواد العين لا شك نورها

وأن بياض العين لا شيء فأعلم

وجاء دور الغلام الأبيض فقال:

ألم تري أن البدر لا شيء مثله

وأن سواد الفحم حمل بدرهم

وأن رجال الله بيض وجوههم

ولا شك أن السواد أهل جهم

فضحك الحجاج وأجازهما.

(8) قصة الحجاج وراعي الغنم

خرج الحجاج يوماً للصيد فوقف علي أعراب يرعي إبلاً فقال له: أتصادقني؟ قال: بلي، قال: هل لي أن أسألك، أجاب الأعرابي: بلي علي أن يكون ذلك سر بيننا فقال له: يا أعرابي كيف رأيت سيرة الحجاج؟.

قال الأعرابي: غشور ظلوم لا حياه الله فقال: فلم لا شكوتموه إلي أمير المؤمنين عبد الملك، فقال الأعرابي: إنه أظلم وأغشم من الحجاج، فبينما هو كذلك إذ أحاطت الخيل والجنود به، فأومأ الحجاج للجنود أن يحملوا الأعرابي، فأخذوه وحملوه فقال الأعرابي: من هـذا؟، قالوا له الحجاج، فحرك الأعرابي دابته حتي صارت بالقرب من الحجاج وناداه يا حجاج قال: ما تشاء يا أعرابي، قال له: السر الذي بيني وبينك أحب أن يكون مكتوماً، فضحك الحجاج وأمر بتخلية سبيله.

والحقيقة أن مغزي هذه القصص وغيرها لم يكن يهدف سوي الإطاحة بصورة الحجاج وإظهاره بمظهر الطاغية الجبار.

ختاماً
هل كان الحجاج حقاً طاغية بني أمية؟

هل كان الحجاج حقاً طاغية بني أمية؟

هل كان الحجاج حقاً طاغية بني أمية.. سؤال لابد له من إجابة

تناولت بعض الأقلام سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي بصفته طاغية بني أمية وتناولت البعض الآخر من الأقلام سيرة الحجاج ابن يوسف الثقفي بصفته مفتري عليه.. وإذا كانت الأغلبية تناولته كشخصية كريهة لما قدم عليه من قتل وسفك للدماء فقد تناولت الأقلية الجوانب الإصلاحية التي قام بها الحجاج لذا قالوا أن الحجاج مفتري عليه ويمكن إيجاز تلك الإيجابيات فيما يلي:

أولاً: عنايته بالقرآن وأمر بمراجعته ونقط كلماته

أجمع بعض معاصريه علي أن الحجاج كان في مقدمة المسلمين الذين عملوا جاهدين علي المحافظة علي كتاب الله وكان يقرأ القرآن في كل ليلة كما في بعض الروايات أو يقرأ ربعه كل ليلة كما في البعض الآخر.

ويروي ابن الجوزي في مختصر صفوة الصفوة أن الحجاج كان

يقرأ القرآن في جوف الكعبة وفي شهر رمضان كان يقرؤه ما بين المغرب والعشاء.. وقد بلغ من حرصه علي أن يظل الكتاب الكريم بمنجاة عن أن يتطرق إلي رسمه أو تحريفه أو أن يلابس تلاوته لحن أن أمر بمراجعة القرآن وفقط كلماته وشكله وتجزئته ثم كتابة عدة مصاحف منها وبعثها إلي الأمصار حتي لا يختلف الناس وكان سبب ذلك أن المصحف الذي كتبه الخليفة عثمان بن عفان في سنة ثلاثين من الهجرة كان غير مشكول ولا منقوط.. فلما دخل في الإسلام غير العرب من الفرس وغيرهم وظهر اللحن علي الألسنة خيف علي القرآن أن يلحق في قراءه فطلب زياد بن أبيه إلي أبي الأسود الدؤلي أن يضع للناس علامات تضبط قراءتهم فشكل أواخر الكلمات وجعل الفتحة نقطة فوق الحرف والكسرة نقطة تحته والضمة نقطة إلي جانبه وجعل علامة الحرف المنون نقطتين ومع هذا لم تحفظ الألسنة من اللحن وكثر التصحيف والتحريف في القراءة، وانتشر في زمن الحجاج بن يوسف فهاله وذلك الأمر وصمم علي وضع حد نهائي لهذه الاختلافات فطلب من كتابه أن يضعوا علامات للحروف المشتبهة فكان فقط الحروف وشكل أولها وآخرها وأوسطها وبدأ نصر بن عاصم الليثي فوضع النقط أفـراداً وأزواجـاً فخالف بين أماكنها حتي لا تشتبه،

واستمر الناس زماناً لا يكتبون إلا منقوطاً ولكن هذا العمل لم يكن كفيلاً بعدم وقوع التصحيف فعهد الحجاج إلي لجنة مكونة من الحسن البصري ويحيي بن يعمر بأحداث الشكل وقد جمع الحجاج القراء والحفاظ والكتاب وطلب منهم أن يحسبوا عدد حروفه وأن يحددوا نصفه وثلثه وربعه وسبعه فقاموا بهذا العمل في أربعة شهور وأما الأعشار فيروي أنها من عمله وقيل إنها من عمل المأمون.

ويمثل ما استهدف الحجاج للنقد في سياسته وإدارته وافتريت عليه في ذلك شتي المفتريات استهدف كذلك لشيء من الافتراء في هذه الناحية، فقد روي السجستاني بسنده أنه غير في مصحف عثمان أحد عشر حرفاً ولأنها تهمه خطرة لو صحت لأوجبت إخراج الحجاج من عداد المسلمين ولشككت في هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كان لابد من معالجة هذه الرواية الفجة لتثبت إنها محض افتراء فبالرجوع إلي رجال الرواية نجد أن عبد الله بن أبي داوود السجستاني صاحب كتاب المصاحف مجروح كذبه أبوه كما وجدنا أن عباد بن صهيب وهو أحد الرواة متروك الحديث من كل هذا نستنتج أن الإسناد غير صحيح، وبالتالي فإن حديث السجستاني غير صحيح هذا من الناحية العملية البحتة

أما من حيث الوقائع فنستطيع أن نقطع بأن الحجاج لم يفعل ما أسنده إليه السجستاني، فلو إنه تناول المصحف بالتغيير لشاع ذلك في حياته ولاستهدف الحجاج لحملات لا قبل له بها من الصحابة والتابعين ولكانت تحت أيديهم وثيقة دامغة بكفر الحجاج ولا يمكن لنا أن نتصور أنهم خافوا بطش الحجاج فسكتوا، فهذه مسألة من أهم أصول الدين لا يسكت عنها مسلم ولو كان السيف مسلطاً علي رقبته، وإذا فرضنا جدلاً أن الصحابة والتابعين من سكان العراق خافوا بطش الحجاج فكيف يسكت غيرهم من سكان الشام وأهل الحجاز وإذا كان هؤلاء جميعاً قد حينوا عن أن يحابوا الحجاج في هذا الأمر الجلل وخافوا منه فهل يعقل أن يكونوا قد سكتوا علي هذا التحريف بعد وفاته؟ وإذا كان الصحابة والتابعين وكبار علماء الدين قد سكتوا عن ذلك لأي سبب من الأسباب فما الذي أسكت الخليفة علي ما فعله الحجاج من تلك الفعلة التي تمس الدين في الصميم.. وإذا فرضنا أن الخليفة لسبب لا ندريه قد سكت علي هذه المحنة الكبري والجريمة العظمي أفلم توهب الدولة الأموية بعد وفاة الخليفة خليفة آخر يعرف ربه فيعود ويصحح ذلك.. وإذا كان الحجاج قد غير أحد عشر حرفاً في مصحف عثمان فهل ظل هذا المصحف

(مصحف عثمان) أم أصبح (مصحف الحجاج) هو السائد بعد ذلك؟ ولم يدلنا السجستاني صاحب الرواية علي العهد الذي أبيدت فيه (مصاحف الحجاج) وأعيدت فيه (مصاحف عثمان) المقروءة إلي يومنا هذا.

ومن الناحية التاريخية نستطيع القول بأن الحجاج لم تمتد يده إلي مصحف عثمان بتغيير أو إبدال وإلا لجعله المؤرخون هدفاً لحملة شعواء ترتكز علي أساس سليم، فها نحن أولاً قد رأيناهم يصبون عليه جام غضبهم لأمور قد يختلف عليها الرأي ويقيمون عليه الدنيا لأسباب لا تعدو أن تكون تافهة فكيف يعقل والحالة هذه أن يسكتوا عن هذا الحادث الجلل وتحت أيديهم الدليل علي ما به يتهمون؟! ومع ذلك نؤيد علي أن قصة تحريف القرآن التي أوردها السجستاني قد آمن بها ورددها المستشرقين ومنهم (نوكدله) الذي نسب إلي الحجاج أنه قام بأعمال في توحيد القرآن الكريم مثل الأعمال التي قام بها (عثمان بن عفان) وأنه حاول أن يضغط علي مصحف ابن مسعود الذي كان له من يقرؤه بالكوفة وقتئذ.

وفي تقديرنا أن الموقف كان لا يعدو أن يكون الحجاج وهو أحد المؤمنين بصحة مصحف عثمان قد هاله أن يري شيعة لابن مسعود

يقرؤون مصحفه علي ما فيه من اختلاف عن مصحف عثمان الذي قرأه جمهور الصحابة كما أنه رأي نسخاً فجة من القرآن يقرؤها غيرها، لذلك أمر (الحجاج) بالعودة إلي مصحف (عثمان) ومنعهم عن تلاوة أي مصحف سواه، فإذا قال أشياع ابن مسعود إنه حرف في القرآن الكريم فإنه صحيح في نظرهم؛ لأنه حرف في مصحفهم، وهو باطل في نظر عامة المسلمين؛ لأنه لم يحرف في مصحف (عثمان).

أما المستشرق (برييه) فيقرر أن يعقوب الكندي قد شهد بأن الأمويين وجدوا في القرآن إشارات جارحة لأسرتهم وخاصة أبي سفيان جدهم ولهذا أصدر الحجاج أمراً باسم الخليفة عبد الملك بإتلاف النسخ القديمة وكتابتها من جديد بعد حذف بعض الفقرات وزيادة فقرات أخري تريدون الأسرة الحاكمة واستبعد (برييه) أن تكون تلك التهمة التي رمي بها الحجاج علي غير أساس، والواقع أنها تهمه علي غير أساس وذلك أن القرآن الكريم جمع في أيام أبي بكر الصديق الخليفة الأول ووضعت نسخه منه عند حفصة بنت عمر وكانت هذه النسخة هي فيما بعد مصحف عثمان وهذا المصحف (مصحف عثمان) بكل ما جاء فيه هو المصحف المعروف اليوم، فلو

أنه جاء بهذا المصفح إشارات جارحة وماسة بالأسرة الأموية كما قال (الكندي) لبقيت هذه العبارات حتي اليوم، والمصحف لا يحتوي علي عبارة واحدة مما يشير إلي هذا الأمر، ومن ذلك تستنتج أن تهمة الكندي هذه لا تقوم علي أساس كما أن مجاراه المستشرق (برييه) أيضاً في ذلك لا تقوم كذلك علي أساس كذا كان الحجاج بن يوسف الثقفي في ذلك الأمر (مفتري عليه) لا أكثر ولا أقل.

سك الحجاج للعملة
واستبدال الفارسية بالعربية

كانت العملة الفارسية واليونانية متداولة في بلاد العرب في الجاهلية ولما ظهر الإسلام ظل العرب يتعاملون بها حتي كانت السنة الثامنة عشرة من الهجرة وقد كثرت الفتوحات في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، فحاول ضرب النقود، فضرب دراهم علي نفس (الكسروية) وشكلها بأعيانها غير أنه زاد في بعضها (الحمد لله)، وفي بعضها الآخر (محمد رسول الله) وفي بعض ثالث منها (لا إله إلا الله)، ثم جاء من بعده (عثمان بن عفان) فضرب دراهم ونقش عليها (الله أكبر) ولما استقر الأمر لمعاوية ضرب دنانير عليها تمثال متقلداً سيفاً، كذلك ضرب عبد الله بن الزبير دراهم مستديرة بمكة ونقش علي أحد وجهيها (محمد رسول الله) وعلي الآخر (أمر الله بالوفاء) ونفس دورها (عبد الله)، وضرب (مصعب ابن الزبير) بالعراق دراهم، ولكن المعاملات في الدولة الإسلامية في ذلك الوقت لم تقتصر علي هذه العملات بل كانت العملة البيزنطية

والعملة الساسانية تتمتع بمكانة ممتازة في العالم العربي الإسلامي ولم يكسبها الصبغة الرسمية إلا عبد الملك بن مروان.

وقد أورد المؤرخون أسباباً لعمل عبد الملك هذا، فذكر فريق أن عبد الملك كتب إلي الامبراطور جستنيان الثاني خطاباً ذكر فيه النبي صلي الله عليه وسلم في التاريخ الهجري وبدأه بقوله تعالي (قل هو الله أحد) فاستاء الأمبراطور من هذا الخطاب وأجاب بأنه إذا تكررت هذه الإشارة مرة أخري فإنه سينقش علي العملة الذهبية للأمبراطورية عبارات جارحة وماسة بالإسلام.. فكبر ذلك علي الخليفة عبد الملك بن مروان فأشار عليه خالد بن يزيد بتحريم دنانيرهم وضرب عملة للناس يتعاملون بها.

وذكر قرين آخر أن سبب ذلك أن عبد الملك بن مروان حينما غير الطراز من الرومية إلي العربية ولما ترجمت له العبارة المكتوبة عليه (باسم الأب والابن وروح القدس) كتب عليه (لا إله إلا الله) فاستاء من ذلك ملك الروم وهدد عبد الملك بن مروان بأنه سيقوم بسب النبي علي النقود.

وروي فريق ثالث أن خالد بن يزيد قال لعبد الملك بن مروان: (يا أمير المؤمنين إن أهل الكتب الأولي يذكرون في كتبهم أن أطول

الخلفاء عمراً حتي قدس الله تعالي في دراهمه، فعزم عبد الملك علي ذلك ووضع السكة الإسلامية).

وفي رأينا أن الأسباب الحقيقية التي دفعت عبد الملك بن مروان إلي سك العملة من جديد هي الرغبة في التنظيم المالي وإيجاد شخصية للدولة الإسلامية وقد شجعه علي ذلك استمرار نار العداء بينه وبين قسطنطين الرابع وجستنيان الثاني، ولعل مسألة الخطاب أو تغيير الطراز كان سبباً مباشراً للقيام بهذا العمل. أما ما رواه المقريزي فهو في رأينا من الأساطير التي تعود المؤرخون علي أن يحيطو بها الحوادث.

لقد وجد عبد الملك بن مروان في ترويج عملة عربية خالصة خالية من كل نقش أجنبي تجديد للشخصية العربية الإسلامية تفرض علي الناس التعامل بها وهدد من يتعامل بغير هذه السكة من الدراهم والدنانير وأوقف العمل بالنقود القديمة وسحبها وردها إلي دار الضرب لصوغها صياغة جديدة.

وضرب عبد الملك بن مروان دنانير عام الجماعة في دمشق سنة أربعة وسبعين من الهجرة وكتب إلي الحجاج أن أضربها قبلك فضرب الحجاج دراهم من فضة سنة خمس وسبعين من الهجرة

ولكن الضرب لم يتخذ أهمية حقيقة ويعمم في جميع النواحي إلا في سنة ست وسبعين من الهجرة وقد أوكل الحجاج أمر ضرب عملته الفضية إلي شخص يدعي (سميرا) ولهذا سميت عملته (بالسميرية) وقد كتب الحجاج عليها (باسم الله) ثم بعد سنة نقش عليها (قل هو الله أحد).

وقد استهدفت نقود الحجاج (السميرية) لحملة من الفقهاء وذلك أنهم كانوا يستنكرون أن يكتب عليها (باسم الله) في وقت هي عرضة لأن يأخذها الجنب والحائض.

وفي رأينا أن الفقهاء الذين استنكروا العملة (السميرية) التي ضربها الحجاج قد أفرطوا في تعصبهم ضدها بدليل أن المعتدلين لم يكرهوها فقد دخلت مدينة (رسول الله) صلي الله عليه وسلم وبها بقايا الصحابة فلم ينكروا منها سوي نقشها؛ لأن بها صورة.

وكان سعيد بن المسيب يبيع ويشتري بها ولا ينكر من أمرها شيئاً وسئل الإمام مالك عن الدراهم والدنانير التي فيها ذكر الله عز وجل فأفتي بأن التعامل بها لا شيء فيه محتجا بأن أهل المدينة لم ينكروا التعامل بها وأن ابن سيرين كان يبيع ويشتري بها، يضاف إلي ذلك أن عمر بن عبد العزيز امتنع عن محو ما عليها من الكتابة حينما اشير

عليه بذلك.

وقد حدث في العصر العباسي في خلافة المنصور أن سميت نقود الحجاج بالمكروهة ورتب العلماء علي هذا الأساس خلافاً لا محل لـه.. فقد ذكر أن المنصور لم يقبل من نقود بني أمية في الخراج غير الهبيرية والخالدية واليوسفية فسميت الدراهم الأولي التي ضربها الحجاج بالمكروهة، ثم أورد البلاذري العلة في ذلك فأشار إلي العناية التي بذلت في ضرب النقود المذكورة حتي قال: فكانت الهبيرية والخالدية واليوسفية أجود نقود بني أمية.

ومن ذلك تستنتج أن تصرف المنصور ضد نقود الحجاج كان لعلة مدينة بحتة هي الجودة في الصناعة ولم يكن لعلة دينية، فلم يكن من العدل أن تكون أساساً لخلاف يرتبه العلماء.

وأنشأ الحجاج في الكوفة داراً لضرب النقود ثم داراً أخري في (واسط) وأوجد بها السباكين فكان يضرب المال للسلطان بما يجتمع له. من التبر وخلاصة (الزيوف) و(الستوقة) و(البهرجة).

ولكي يتلافي محاولات الغش والسرقة لم يكتف بمراقبة عمال الضرب مراقبة صارمة بل وسمهم بعلامة في أيديهم وهكذا كان

للحجاج دوراً رائداً في سك العملة العربية في الدولة الأموية فأنشأ دوراً للضرب ووضع القواعد والأصول التي تسير عليها.

كل نفس ذائقة الموت
نهاية الحجاج

كيف مات الحجاج؟

كان موت الحجاج درامياً كحياته، أو لنقل أنه مات بسبب أو آخر جزاء حياته، فقد مرض مرضاً غريباً يحكي عنه المؤرخون التقاه كابن خلكان.. حيث كان مرضه بالأكلة وقعت في بطنه ودعا بالطبيب لينظر إليها، فأخذ لحماً وعلقه في خيط وسرحه في حلقة وتركه ساعة ثم أخرجه وقد علق به دود كثير وسلط الله عليه الزمهرير (شدة البرد) فكانت الكوانين تجعل حوله مملوءاً ناراً منه حتي تحرق جلده، وهو لا يحس بها وشكاً ما يجده إلي الحسن البصري فقال له: قد كنت نهيتك أن تتعرض إلي الصالحين فلححت فقال له: يا حسن لا أسألك أن تسأل الله أن يفرج عني، ولكن أسألك أن تسأله أن يعجل قبض روحي ولا يطيل عذابي، فبكي الحسن بكاء شديداً، وأقام الحجاج علي هذه الحالة، وهذه العلة خمسة عشر يوماً وتوفي في شهر رمضان – وقيل في شوال – سنة خمس وتسعين للهجرة

وعمره فلانة وقيل أربعة وخمسون سنة وهو الأصح.

ويبدو أن الحجاج كان يستشعر في مرضه موقف الناس منه فكتب إلي الوليد بن عبد الملك كتاباً يخبره فيه بمرضه وكتب في آخره إذا ما لقيت الله عني راضياً فإن سرور النفس فيما هنالك. فحسبي حياة الله من كل ميت وحسبي ثواب الله من كل هالك لقد ذاق هذا الموت من كان قبلنا ونحن نذوق الموت من بعد ذلك.

وقال ابن أبي الدنيا:

ثنا أحمد بن عبد الله التيمي قال: لما مات الحجاج لم يعلم أحد بموته حتي أشرفت جاريه فبكت، فقالت: إلا أن مطعم الطعام؟ ومتيم الأيتام، ومرسل النساء ومفلق الهام وسيد أهل الشام قد مات. وقال الطبري في تاريخه الكبير، توفي الحجاج لتسع بقين من شهر رمضان سنة خمسة وتسعون. وقال غير الطبري: لما جاء موت الحجاج إلي الحسن البصري سجد له شكراً وقال: اللهم إنك قد أمته فأمت عنا سنته وكانت وفاته بمدينة واسط ودفن بها وعفي قبره، وأجري عليه الماء ولما قيل للحسن البصري:

أن الحجاج قال عند الموت كذا وكذا قال:

أقالها.

قالوا:

نعم قال:

عسي.

رحم الله أمواتنا وأموات المسلمين.. ويكفي القول أن حساب الحجاج بن يوسف الثقفي عند الله إن أصاب فله وإن لم يصب فعليه.

المراجع

1 ـ البداية والنهاية لابن كثير.

2 ـ مروج الذهب للمسعودي.

3 ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي.

4 ـ الحجاج بن يوسف الثقفي المفتري عليه د. محمود زيادة.

5 ـ الحجاج بن يوسف إحسان صدقي العمد.

6 ـ العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي د. عبد الواحد ذنون طه.

7 ـ واسط في العصر الأموي د. عبد القادر سلمان المعاضيدي.

8 ـ العراق في العصر الأموي – ثابت الراوي.

9 ـ تاريخ خلافة بني أمية نبيه عقل.

10 ـ مواقع مختلفة علي شبكة الإنترنت.

فهرس المحتويات

تقديم 5

الحجاج بن يوسف الثقفي 13

موجز سيرته 13

نسبه: 13

نشأته: 13

شخصيته: 16

حرب مكة: 16

ولاية الحجاج علي الحجاز: 17

ولاية الحجاج علي العراق 18

حروب الخوارج 22

ثورة ابن الأشعث: 23

ولاية الوليد: 24

وفاة الحجاج: 25

الحجاج وسعيد بن المسيب 28
ميراث الحجاج: 28
مذهبه في الحكم: 29
الحجاج وأهل العراق والشام 31
الحجاج يحارب عبد الله بن الزبير 37
ويرمي الكعبة بالمجانيق 37
الواقعة كما رواها ابن كثير 53
ذات النطاقين والحجاج 58
الحجاج بن يوسف الثقفي 65
والإمام الزاهد الحسن البصري 65
من أشهر خطب الحجاج 69
قصص ومواقف من حياة الحجاج 85
هل كان الحجاج حقاً طاغية بني أمية؟ 99
سك الحجاج للعملة 106
واستبدال الفارسية بالعربية 106
نهاية الحجاج 112

كيف مات الحجاج؟ 112
المراجع 115
بطاقة تعارف 9